

5me Année, No. 213 — Lundi - 2 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

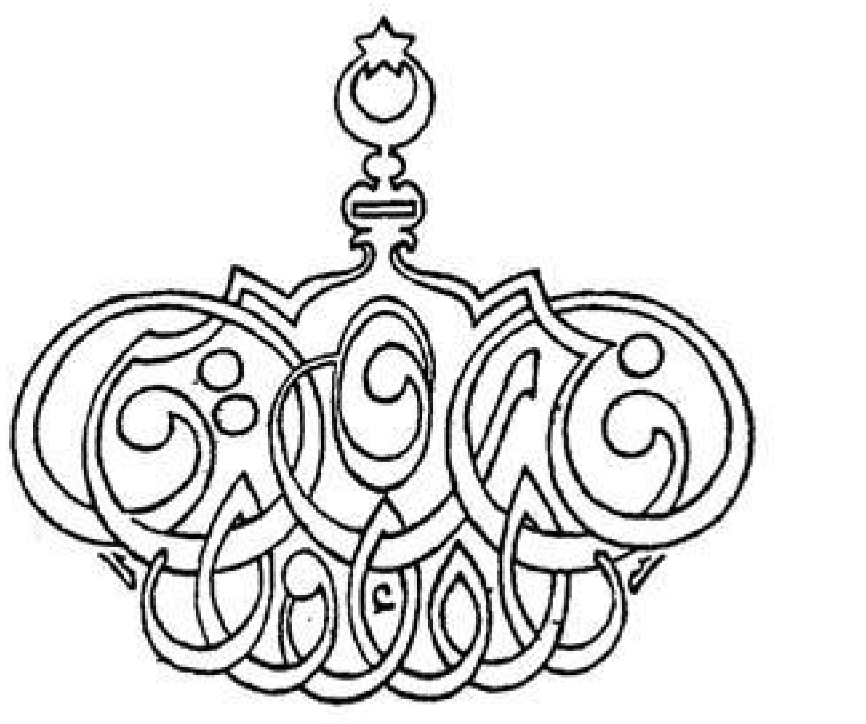
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٢ اغسطس سنة ١٩٣٧» العـــدد ٢١٣

فهرس العـــدد



أسبوع التـاج

كانت مصر كلها طوال الأسبوع الماضي ، من صباح أحده إلى مساء سبته ، فى سكرة من الطرب النشوان ، وفورة من الحماسة المضطرمة . والطرب والحماسة كلمتان مسكينتان لا تقعان من حقيقة الأمر فى كثير ولا قليل . وكيف تدرك من هاتين الكلمتين وأشباههما تلك الحال العجيبة التى قامت بسكان هذا البلد الوفى أبنائه ونزلائه لمقدم الفاروق ، وتتويج الفاروق ، ومواهب الفاروق ، فجعلت كلامهم وأنغامهم وأحلامهم هتافاً لمجده لا يفتر ، ودعاء لعهده لا ينقطع ؟ !

انفعلت قلوب الناس بما أجنته للمليك الشاب من الإعجاب والحب والأمل ، فعبرت عن ضوء رجائها ، وحرارة ولائها ، بهذه

العنوان (فاروق الأول) مكتوب على شكل التاج من صنع الخطاط محمد حسنى

الملايين من المصابيح الكهربائية ، رصعت بها وجوه العمائر والمتاجر ، وجعلت منها عقوداً منظمة على أطورة الطرق ، وأبراجاً متوجة فى بُهَر الميادين ، وأقواس نصر فى مداخل الشوارع ؛ وافتن فيها الصناع فرسموا بها أشكالا تعبر عن شتى العواطف ، وخطوطاً تسفر عن خالص الأدعية ؛ ثم راحوا يرقصون ويهزجون فى إشراق باهر تشعه القلوب المتهللة ، وتعكسه المدينة المتألقة . ولكن ماذا يصنع الكاتب وقد انبثق فى حسه هذا النور ، وانفتح فى ذهنه هذا العالم ، إذا أراد أن يمثله للخاطر البعيد ، ويسجله فى صحيفة الأبد ؟ هل يملك إلا ريشة من المعدن لا تلين ، وألفاظاً من اللغة لا تدل ؟ وهل اللغة مهما اتسعت موادها إلا أبعاض من صوت النفوس ، وأصداء لهتاف القلوب ؟ ماذا يقول الكاتب أو الشاعر فى ثلاثة ملايين من الناس تجردوا من هموم الحياة وأنانية الذات ، واحتشدوا فى مسالك القاهرة يَسْبحون فى أمواج هذا النور المعبر ، وقد انطوي كل منهم على عالم زاخر بالأمانى والأخيلة والأحاسيس ، ولا حديث لهم ولا نجوى إلا مليكهم الأعز ، وطالعه الأسعد ، وعهده الأغر ، وخلقه الأكمل ؛ هذا يذكر فى فخر حادثاً من حوادث ديمقراطيته ، وذاك يروي فى إعجاب نادرة من نوادر عبقريته ، وذلك يقص فى زهو عملا من أعمال نبله ؛ والألسنة كلها فى كل مكان أشبه بلواقط الراديو ذوات المصدر الواحد تردد الحديث نفسه بصوته وطريقته ؟

قد يحتشد الناس فى أيام الزينة ومواكب النصر بدافع الايحاء أو الإغراء أو الفضول فيقفون عند الظواهر والأشكال لا يحسون الروح ولا يلمسون الجوهر ولا يخلون الغرض ، ولكن مواكب التاج كانت أنساً خالصاً لكل فرد ، وعرساً خاصاً بكل أسرة ؛ ساهم فيه كل بماله (نقوطاً) ، وبقلبه إخلاصاً ، وبسروره غبطة . وهذه هى العقدة النفسية التى تنحل أمامها قوى الكاتب قبل أن يجد لها وصفاً أو يحدد لها علة .

***

رأيت جلالة الفاروق فى حفلات التتويج عن كثب ، وفى ذهنى صورة طبيعية للغلام الشابل (1) الذى يهدف للثامنة عشرة من سنيه ، فاذا رجل وقور الطلعة ، رزين الحركة ، ظاهر الأبهة ، باهر الجلالة ؛ نظرته نظرة روحه لا نظرة عينه ، وعقله عقل جسمه لا عقل سنه : فأدركت حينئذ معنى قول الشاعر الفرنسى : « إن النفوس التي تولد على دَرَج العرش لاتنتظر عبقريتُها كرور السنين » وتعليل ذلك أن الطفل الملكى متى كان سليم الفطرة تستجيب غرائزه إلى وحى العمل الذى يُهيأ له ؛ وعلمُه بأنه يهيأ لوراثة المُلك يحمله على اتخاذ سَمْته وسِمَتِه ؛ ثم ينشأ فى جو يساعده مافيه من النظام والاحترام ومظاهر القدرة وتقاليد الأسرة على سمو المدارك ونضوج الرجولة ؛ ولا ينفك يسمع فى مجارى دمه النبيل أصوات أجداده الأمجاد تأمر وتنهى ، وتشير وتوحى ، وترسم وتدل ؛ فاذا رُفع إلى العرش واستوى عليه لم يجد فى نفسه شيئاً جديداً ينكره ، ولا فى جوه مظهراً غريباً يستريبه ؛ فيسير أمره على مارسمته النشأة ، وهيأته الطبيعة ، لا تكلف ولا تعسف ولا تظاهر ولا تذبذب .

لذلك انتقل الفاروق من حال التلميذ إلى حال الملك فى سهولة أدهشت الناس فى مصر وفى غير مصر .

وليس لهذا الدهش موضع ، فان الرجل الذى يختل توازنه ويضطرب أمره ، هو الذى يتحول بغتة من العجز إلى القدرة ، ومن الخضوع إلى السلطة ، ومن الصعلكة إلى المُلك ، فيستر صغره بالكِبْر ، وضعفه بالاستبداد ، وفشله بالخديعة ؛ ثم لا يطمئن إلى حاله ، ولا يستقر فى محله ، فيتعلق بالظنون ، ويستمسك بالدسائس ، ويعتصم بالترفع ؛ ولكن الفاروق العظيم ربيب المُلك وسليل محمد على وإبراهيم وإسماعيل وفؤاد يرى نفسه طبيعياً فى موضعه ؛ وموضعه فوق الحكم وفوق الأحزاب وفوق المطامع ، فلا يمكن أن يكون إلا كما تراه . ومخايل الفاروق ودلائل الحال تؤكد أنه سيكون في عهده السعيد الجيد موئل الدستور ، وملاذ الحرية ، وحارس الدين ، وراعى الشعب ، ومرشد الحكومة فى الحيرة ، ومرجع الأحزاب فى الخلاف ؛ أما ثقافة العقل والجسم والخلق فتلك رسالته التى وكل الله إليه أداءها بالتشجيع والتشريع والقدوة .

احمد حسن الزيات

(1) الشابل المتلئ نعمة وشبابا

السرقات الأدبية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

سأقص على القراء حادثة أعذر من لا يصدقها ولا ألوم من يرتاب في صحتها، ولكنها مع ذلك حقيقية، وبعض الحقائق أغرب من تلفيقات الخيال. وذلك أني على أثر الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ذهبت إلى الاسكندرية لأقضي فيها أياماً أو لأتخذ فيها مقامي - حسب الأحوال - وكنت لا أزال سقيم الأعصاب جداً. وكنا في رمضان فأفطرنا واسترحنا ثم خرجنا لنحيي الليل بالسهر كما هي العادة وكنت منشرح الصدر، ولكني لم أكد أتجاوز عتبة البيت حتى وقفت وقلت لقريبي إني محموم، فأنا راجع، لجسني فلم يجد بي شيئاً فأصررت على أنها الحمى، فرقدت وكنت لا أكاد أطيق الصهد الذي أحسه. وزال عني ذلك بعد ساعة أو اثنتين غير أني لزمت الفراش وعادني طبيب الأسرة في اليوم التالي فقال: إن هذه حمى عصبية. فاستغربت ولكني عانيت من الأعصاب ما جعلني أصدق كل شيء، وبقيت أياماً في البيت زارني في خلالها صديقي الأستاذ العقاد وترك لي رواية روسية أتسلى بها، فأكببت عليها وقرأتها في ساعات أحسست بعدها أني صرت أقوى وأصح بدناً وأقدر على المكافحة والنضال في الحياة، وأنه صار في وسعي أن أستخف بما يحدث لي سقم الأعصاب من الوهم. وعدت إلى القاهرة، ومضى عام فطلب مني بعضهم أن أترجم له رواية؛ فقلت لنفسي إني مدين لهذه الرواية الروسية بشفائي وبالروح الجديدة التي استولت علي، فيحسن أن أنقلها إلى العربية عسى أن تنفع غيري كما نفعتني. وقد كان. نقلت الرواية بسرعة، وكنت أذهب إلى المطبعة لتصحيح المسودات فيقول لي العامل أحياناً: إن الأصول نفدت، فأقعد في أي مكان وأفتح الرواية وأروح أترجم وأرمي للعمال بالورقة بعد الورقة، وكأني أدون كلاماً حفظته من قبل. ولست أذكر هذا لأباهي به ولا لأقول لكم إني رجل بارع، بل لسبب آخر سيأتي ذكره في موضعه. وفرغنا من الترجمة والطبع؛ ولم يعن الناشر بأن يبعث إلي بنسخة من الرواية ولم أعن أنا بأن أطلب أو أدخر نسخة؛ وقد نسيت أن أقول إني لميتها «ابن الطبيعة» وكان اسمها في الأصل «سَنين» وهو اسم بطلها. وليس هذا إعلاناً فقد نفدت من زمان طويل. كان هذا في سنة ١٩٢٠. وفي سنة ١٩٢٦ شرعت أكتب قصة «ابراهيم الكاتب» وانتهيت منها ولم أرض عنها فألقيتها في درج حتى كانت سنة ١٩٣٠ فخطر لي أن أنشرها، فدفعت بها إلى المطبعة، فاتفق بعد أن طبعنا نحو نصفها أن ضاعت بعض الأصول وكنت لطول العهد قد نسيت موضوعها وأسماء أشخاصها فحرت ماذا أصنع؛ ثم لم أر بداً من المضي في الطبع فسددت النقص ووجهت الرواية فيما بقي منها توجيهاً جديداً. ونشرت الرواية. وبعد شهور تلقيت نسخة من مجلة «الحديث» التي تصدر في حلب وإذا فيها فصل يقول فيه كاتبه إني سرقت فصلا من رواية ابن الطبيعة. فدهشت ولي العذر. واذكروا أني أنا مترجم ابن الطبيعة وناقلها إلى العربية، وأن أربعة آلاف نسخة نشرت منها في العالم العربي، وإني أكون أحمق الحمقى إذا سرقت من هذه الرواية على الخصوص. فبحثت عن ابن الطبيعة وراجعتها وإذا بالتهمة صحيحة لا شك في ذلك، بل هي أصح مما قال الناقد الفاضل. فقد اتضح لي أن أربع أو خمس صفحات منقولة بالحرف الواحد من ابن الطبيعة في روايتي «ابراهيم الكاتب». أربع أو خمس صفحات سال بها القلم وأنا أحسب أن هذا كلامي. حرف العطف هنا هو حرفه هناك؛ أول السطر في إحدى الروايتين هو أوله في الرواية الأخرى ... لا اختلاف على الاطلاق في واو أو فاء أو اسم إشارة أو ضمير مذكر أو مؤنث ... الصفحات هنا هي بعينها هناك بلا أدنى فرق. ومن الذي يصدقني إذا قلت إن رواية ابن الطبيعة لم تكن أمامي ولا في بيتي وأنا أكتب روايتي؟ من الذي يمكن أن يصدقني حين أؤكد له أني لم أر رواية ابن الطبيعة مذ فرغت من ترجمتها، وأني لو كنت أريد اقتباس شيء من معانيها أو مواقفها لما عجزت عن صب ذلك في عبارات أخرى؟ لهذا سكت ولم أقل شيئاً وتركت الناقد وغيره يظنون ما يشاءون فما لي حيلة. ولكن الواقع مع ذلك هو أن صفحات أربعاً أو خمساً من رواية ابن الطبيعة علقت بذاكرتي — وأنا لا أدري — لعمق الأثر الذي تركته هذه

الرواية فى نفسى فجرى بها القلم وأنا أحسبها لى . حدث ذلك على الرغم من السرعة التى قرأت بها الرواية والسرعة العظيمة التى ترجمتها بها أيضا . ومن شاء أن يصدق فليصدق ، ومن شاء أن يحسبنى مجنونا فان له ذلك . ولست أروي هذه الحادثة لأدافع عن نفسى فما يعنيني هذا ، وإنما أرويها على أنها مثال لما يمكن أن تؤدى إليه معابثة الذاكرة للانسان . وليست الذاكرة خزانة مرتبة مبوبة ، وإنما هى بحر مائج يرسب ما فيه ويطفو بلا ضابط نعرفه ومن غير أن يكون لنا على هذا سلطان . فالمرء يذكر وينسى . ويغيب عنه الشيء ويحضر بغير إرادته وبلا جهد منه ، ويعلق بذاكرته مايعلق وهو غير دار أو مدرك لمايحدث ، وتتزاوج الخوالج وتتوالد كما يتزاوج الناس ويتوالدون وهو غير شاعر بشيء مما يجرى فى نفسه من التفاعل وأثره

ولست أحب أن أجعل من نفسى قاضيا يحكم على هذا بالسرقة وعلى ذاك بالانتحال إلى آخر هذا ، وإنما أحب أن أعلل وأفسر الحالات أو الحركات النفسية التى تؤدى إلى ما يمكن أن يسمى سرقة أو اقتباساً أوالتى تغرى إنسانا بما فكر فيه غيره . ولاجديد فى تعليلي أو تفسيرى فانه قائم على علم النفس ، وإنما الجديد فيه هو التوجيه أو التطبيق ، ولا فضل فى هذا ولا مزية له . ومن أجل ذلك أقصر هذا الفصل على الأمثلة فان المقام لايتسع لها ولما يبدولى من وجوه التعليل ، وأرجو أن تتاح لي فرصة قريبة أشرح فيها منهجي ورأيي فى هذه الحالات

وقد عنى العرب بتعقب شعرائهم ، فكل شاعر ظهر له من ينخل كلامه ويغربله ويرد المعانى إلى أصحابها أى إلى الذين سبقوا إليها . والسبق في الزمن هو الذى يكسب السابق الحق في المعنى ؛ وأنا أقول المعنى لأنه لم يكن ثم موضوع للقصائد غير الأغراض المألوفة مثل المدح والهجاء والفخر والغزل وما إلى ذلك . ولما كان البيت فى الشعر العربي القديم هو الوحدة فقد صارت الأبيات المفردة هى مدار هذا الضرب من النقد ؛ فهذا أخذ معنى البيت الفلانى من فلان ، وذاك نظر إلى قول علان ، إلى آخر هذا إن كان له آخر . ولهم فى هذا الباب حكايات بعضها لاشك مختلق والبعض قد يكون صحيحا ، وأعنى بهذه الحكايات ما يراه المرء فى كتب الأدب من أن بعض الشعراء المستهترين المستخفين بالدنيا ومافيها من مثل أبي نواس سمع شاعرا مغمورا ينشد قصيدة فأعجبه معنى بيت فيها فأخذه جهرة وقال : أيروى لك هذا المعنى وأنا حى ؟ . . ومثل ما يروون من أن المتنبي كان ينكر فى حياته أنه قرأ شعر ابن الرومي ، فلما قتل وجدوا بين أوراقه نسخة خطية بالطبع من ديوان ابن الرومى وعليها تعليقات بخط المتنبي . ولافائدة من محاولة التمثيل لهذا النوع من السرقات فان الكلام خليق أن يطول بلا جدوى ومن غير أن نجيء فيه بجديد وأكثر القراء يستطيعون أن يرجعوا إليه إذا شاءوا فى كتب الأدب المتداولة . لهذا أوثر أن أسوق أمثلة مما فى الآداب الغربية مما يدخل فى باب السرقات فان الأمر فى هذه أمر موضوع يقتبس ، أو قصيدة برمتها تؤخذ من أولها إلى آخرها على طولها بالحرف الواحد . والقليلون يعنون بتعقب هذا فذكر أمثلة منه خليق أن يكون أمتع .

أشهر شعراء الاغريق هومر كما لا أحتاج أن أقول ؛ وقد قرأت ترجمتين انجليزيتين له وحطمت رأسى بهما وأعترف أنه لم يرقنى منه إلا القليل ، ولكن كنت أخشى أن أجاهر بهذا الرأى لئلا يقول عنى إخوانى إن ذوقي فاسد أو إن بى نقصاً فى الاستعداد الأدبى ؛ أما الآن فانى أستطيع أن أجهر بذلك وأن لا أخشى تهماً كهذه . على أنى لا أذكر هومر الآن لأقول رأيي فيه بل لأروى قصتين صارتا الآن معروفتين : الأولى أن الأدب الاغريقي كان فى العصور الوسطي مجهولا أو مدفوناً وكان لايعرفه إلا الرهبان الذين احتفظوا بنسخ منه ضنوا بها على النشر والاذاعة لأنه أدب وثنى ، وفيما عدا هؤلاء الرهبان لم يكن أحد يعرف شيئاً لاقليلا ولا كثيراً عن الأدب الاغريقي ، فكان من سخرية الأقدار أن الرجل الذى رد إلى العالم هومر فى القرن الرابع عشر كان سكيراً نصاباً وشريراً كبيراً ، وأن الرجل الذى حمله على ترجمة هومر كان من أبرع كتاب النهضة ، وأن الرجل الذى آلى على نفسه أن يعمل على نشر جمال الأدب الاغريقى فى العالم كان لايعرف حرفاً واحداً من اللغة الاغريقية . هؤلاء الثلاثة الذين جمعهم الحظ هم بيلاتس Pilatus وبوكاكشيو Boccaccio وبترارك Petrarch . فأما أولهم فكان مغامراً يؤثر أن يستخفى لأسباب لعل البوليس أعرف بها ؛ وكان قذراً كثير الشعر دميم الخلقة ، ولكنه كان يعرف اللغة الاغريقية فجاء به

بوكاكشيو وأنزله عنده ضيفاً فبقي ثلاث سنوات . أما بوكاكشيو فمعروف مشهور وهو عندى أنبغ نوابغ الايطاليين ولكنه كان ساذجاً وكان لايعرف قدر نفسه وكان عظيم التوقير لبترارك حتى لقد صار فى آخر حياته يخجل لأنه كتب ما كتب باللغة الايطالية العامية لا باللاتينية . وأما بترارك فقد اقتنع لسبب لانعرفه بأن المخرج الوحيد من السوء الذى يراه فى زمانه هو إحياء درس الأدب الاغريقي ، ويظهر أنه كان هناك اعتقاد بأن هذا الأدب المقبور هو القادر وحده على حل المشاكل التى كانت تواجه العالم في ذلك الزمان ، وهكذا عرف الناس هومر بعد أن قبره الزمن عدة قرون .

ومن المحقق أن هومر كان يعرف الأساطير المصرية وأنه استعان بها فى قصيدتيه — الالياذة والأوديسية — وأحسب أن كثيرين قرأوا البحوث التى نشرها الأستاذ عبد القادر حمزة وأثبت فيها — استناداً إلى ما وقف عليه وكشف عنه العلماء بالآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم — أن هومر أخذ كل العقائد وكل القصص من المصريين . والمصريون كما لا أحتاج أن أقول — أسبق بآلاف السنين لا بمثاتها فقط ، وهم الذين نشروا فى العالم القديم العقائد التى لا تزال باقية إلى اليوم . وهم أول من فكر فى الروح والآخرة والحساب والعقاب . وقد ذهبت مدنيتهم ولكن آثارها بقيت وهى على قلتها كافية للدلالة على حضارتهم . وقد نشر الأستاذ عبد القادر حمزة النصوص وأثبت منها أن هومر أخذ قصصه من مصر وأن كل مافعله هو تغيير الأسماء وقلبها إغريقية . وأنا أزيد على ذلك أن هيرودوت يقول عن هومر كلمة لها مغزاها ، ذلك أنه يصف عمله بأنه « تنظيم » ، ويقول عنه في موضع آخر إنه وضع « إطاراً » للقصص ، وفى موضع آخر أيضاً إنه « جمع » . ومعنى هذا أنه كان معروفاً أن هومر لم يبتكر قصصه وإنما جمعها ورتبها ونظمها . ويظهر أنه كانت هناك روايات متعددة مختلفة وأن هومر شعر بالحيرة بينها ولم يدر أيها يؤثر : الرواية المصرية أم الروايات المشوهة التى شاعت فى اسبارطة وأثينا وفى غيرهما ؟ ولهذا اضطرب ولم يستقر على رأى فى أيهما هو البطل — هكتور أو أخيل — ويرجح بعضهم أنه لحيرته بين الروايات المختلفة أعد نصين ، واحداً ينشده على الجانب الأسيوي والآخر ينشده على الجانب الأوربى . على أن المهم أن هومر أخذ موضوعه كله بكل ما انطوى عليه من مصر ، فلولا مصر لما كان هومر . وأحسب أن الدنيا ما كانت حينئذ تخسر شيئاً فقد أصبح هومر اسماً لا أكثر

وأدع التوافه مثل قول أكثر من ناقد واحد : إن الرومان مدينون بفكاهتهم للاغريق ، وإنه ما من نكتة فى الأدب الرومانى إلا وهى مأخوذة من نكت الاغريق أو لها مايقابلها عندهم ، ومثل قولهم إن « الأبولوجيا » أو الاعتذار الذى كتبه سنيكا لما أمره نيرون بالانتحار ليس سوى تقليد ضعيف للأبولوجيا التى كتبها أفلاطون عن سقراط بعد الحكم على سقراط بالموت ، ومثل قولهم إن وصف درع « إينياس » فى قصيدة فرجيل مأخوذ من وصف هومر لدرع أخيل ، وقولهم أيضاً إن خير ما فى إينيادة فرجيل منقول بالحرف من إينيوس Ennius وكاتالاس Catallus وأن القصيدة كلها فى الحقيقة ليست أكثر من مقاطيع منقولة من شعراء سابقين مثل هومر وأبوللونيوس Appollonius ورودياس Rhodias ولوسيلياس Lucilius ولوكريشلاس Lucretius وأن مكروبيوس Macrobius ضبط كل هذه السرقات ، ومثل قولهم إن الشاعر الانجليزى « مارلو » — معاصر شكسبير — انتحل أبياتاً كثيرة ترجمها عن اليونانية فى روايته « الدكتور فاوست » . أدع كل هذا لأنه كما قلت من التوافه وأثب إلى ملتون الشاعر الانجليزى المشهور ، وأعترف أنى لا أحبه وأنى ما استطعت في حياتى أن أقرأ له قصيدة مرتين . وأشهر ما لملتون قصيدة « الفردوس المفقود » وأختها « الفردوس المستعاد » والأولى لا الثانية هى التى تقوم عليها شهرته . وهذه يقول النقاد إن من المعروف أنها عبارة عن جملة سرقات من ايسكلاس ودافيد وماسينياس وفوندل وغيرهم . ولكنه لم يكن معروفاً أن الفردوس المفقود كله — موضوعه ومواقفه وعباراته أيضاً — مترجمة ترجمة حرفية عن شاعر إيطالي مغمور غير معروف كان معاصراً لملتون . لم يكن هذا معروفاً حتى اهتدى إليه « نورمان دوجلاس » فقد اتفق له أن عثر على نسخة وحيدة من رواية « ادامو كاتوتو » Adamo Caruto لمؤلفها « سرافينو ديللا

سالاندرا » Serafino Della Salandra وهذه الرواية وضعت فى سنة ١٦٤٧ .

وأنا أنقل هنا ما يقوله « نورمان دوجلاس » قال :-

سأسوق الآن بلا تمهيد ما يكفى لاثبات أن الفردوس المفقود ليس إلا نقلا وترجمة لهذه الرواية

محور قصيدة سالاندرا هو ما أصاب العالم من جراء العصيان الذى أغرى به الانسان الأول . وهذا هو محور موضوع ملتون

والأشخاص فى رواية سالاندرا هم الله ، وملائكته ، والانسان الأول والمرأة الأولى والحية وإبليس وزملاؤه . وكذلك فى قصة ملتون

وفى فاتحة القصيدة أو التمهيد لها يذكر سلاندرا الموضوع ويتكلم عن الله وأعماله . وكذلك يفعل ملتون

ثم يصف سلاندرا مجلس الملائكة المتمردين وسقوطهم من السماء فى منطقة جرداء نارية ويسوق أحاديثهم وكيف أنهم يحقدون على الانسان ويتفقون على الاحتيال على إسقاطه ويقررون أن يجتمعوا فى الهاوية حيث يتخذون التدابير الخليقة أن تجعل من الانسان عدواً لله وفريسة لجندهم . وكذلك فى ملتون

وسالاندرا يجسد الخطيئة والموت ويجعل الموت ثمرة الخطيئة . وكذلك يفعل ملتون

ويصف سالاندرا سبق العلم الالٰهى بنتيجة الاغواء وسقوط الانسان وتهيئته تعالى لأسباب الخلاص . وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا موقع الجنة والحياة السعيدة فيها . ويفعل ملتون مثله

ويشرح سالاندرا الاعجاز فى خلق العالم والانسان وفضائل الثمرة المحرمة . وكذلك ملتون

ويروى سالاندرا الحوار الذى دار بين حواء والحية ويصف الأكل من الشجرة المحرمة واليأس الذى استولى على أبوينا — آدم وحواء — وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا فرحة الموت بما ارتكبته حواء والسرور الذى عم الجحيم والحزن الذى انتاب آدم وخروج آدم وحواء من الجنة وحزنهما وندمهما . وكذلك يفعل ملتون

ويتوقع سالاندرا مجيء المخلص وهزيمة الخطيئة والموت ويتكلم عن عجائب الخلق ويصف قتل قابيل لأخيه هابيل ويذكر الخطيئات فى الدنيا والحرب وأهوالها . وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا الحب الذى ينطوى عليه عيسى عليه السلام والعزاء الذى يشعر به آدم وحواء حين يبشرها الملك بمجيء المسيح ثم خروجهما من جنتهما الأرضية . وكذلك يفعل ملتون

فالموضوع مأخوذ برمته كما أثبت ذلك نورمان دوجلاس . ويقول برتون راسكو : « إن هذا ليس كل شيء ويحيل القارىء على كتاب اسمه « أولد كالاريا » — كالاريا القديمة — ويؤكد أنه يؤخذ منه أن ملتون ترجم قصة سالاندرا حرفا بحرف وأن ماليس مترجما عن سالاندرا مترجم عن غيره من الشعراء القدماء

والذى يجعل الأمر أغرب أن ملتون كان قد أعلن قبل ذلك عزمه على نظم قصة خالدة لا يسمح الناس بأن يدعوها تموت وتقبر، ويعنى بها الفردوس المفقود ، وبعد أن أعلن عزمه هذا بسط لسانه فى كل الشعراء الانجليز الذين تقدموه مثل شوسر وسبنسر وشكسبير ومارلو وجونسون ووصفهم بأنهم صناع آليون ، وانتقد هومر وفرجيل وتاسو وعاب شعرهم . ويعلل نورمان دوجلاس اهتداء ملتون إلى قصة سالاندار بأن ملتون لقيه فى رحلته إلى إيطاليا ، وأن سالاندرا يرجح أن يكون أعطاه نسخة من قصته عسى أن يعينه على ترجمتها إلى الانجليزية . ويقول إن ملتون كان له أصدقاء يراسلونه من إيطاليا وإنه قابل جروتياس Gratius فى باريس وجاليليو Galelio فى فلورنسا ، وإنه يحتمل أن يكون هذان قد أعطياه نسخة من القصة لما نشرت بالايطالية . والمحقق على كل حال أن قصيدة الفردوس المفقود نسخة طبق الأصل من قصيدة سالاندرا الايطالى .

وأنتقل الآن إلى ما هو أحدث فى أثناء الحرب العظمى . لم يكن لنا عمل بعد السعى وراء الرزق إلا القراءة والاطلاع واتقاء التعرض لمكاره الاعتقال والسجن وما عسى أن يكون وراءها . وقد وقتنى الكتب ذلك مرة وجاء القوم يفتشون بيتى وكان معهم ضابط انجليزى ، فلما دخل المكتبة وأجال عينه فى الرفوف وما عليها من كتب الأدب حسن رأيه فىّ ومال إلى الرفق ، فانتهى الأمر بخير . ولكن هذا استطراد فلنرجع إلى ما كنا فيه . والذى أريد أن أقوله هو أن صديق الأستاذ العقاد أعارنى

يوماً قصة « تاييس » لأناتول فرانس فقرأتها بلهفة فقد استطاع المترجم الانجليزي أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدره وبراعة العبارة وسحرها . ومضت بضعة شهور ثم دفع إلى الأستاذ العقاد رواية « هايبيشيا » للكاتب الانجليزي « تشارلز كنجزلي » فقرأتها أيضاً ، ثم سألني : ما رأيك ؟ قلت : غريب . قال : إن الروايتين شيء واحد . قلت : صحيح

والواقع أن الروايتين شيء واحد وأن تاييس مأخوذة من هايبيشيا بلا أدنى شك . وفي وسع من شاء أن يقول إن أناتول فرانس ما كان يستطيع أن يكتب — أو ما كان يخطر له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلي إلى الموضوع . ذلك أن تاييس في رواية أناتول فرانس هي هايبيشيا في رواية كنجزلي ، والعصر هو العصر والبلاد هي البلاد ، وكل ما هناك من الاختلاف هو أن أناتول فرانس أستاذ فنان ، وأن تشارلز كنجزلي أستاذ مؤرخ . وأنا مع ذلك أفضل رواية هايبيشيا وأراها أكبر وأعمق وأملأ للنفس وأمتع للعقل ، فما لأناتول فرانس في تاييس غير براعة الأسلوب وحلاوة الفن ، ولكن الصور في رواية هايبيشيا أتم وأصدق ، والشخصيات أكثر ورسمها أقوى وأوفى والموضوع أحفل . وفي وسعي أن أقول بلا مبالغة إنها تعرض عليك عالماً تاماً لا ينقصه جانب واحد من الجوانب ؛ أما تاييس فليست سوى لمحة خاطفة من هذا العالم

وتشارلز كنجزلي يرسم لك الحياة في تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ما انطوت عليه ويريك الناس والأشياء والعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائعة والفردية بدقة وأمانة ، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطاً سريعة تريك ما وقع في نفسه من ذلك العصر ، فهو أشبه بالمصورين الذين يجرون على طريقة الامبرشنزم أي الذين يصورون وقع المناظر في النفس لا المناظر كما هي في الحقيقة والواقع .

هذا بعض ما يسعني الآن أن أذكره وأمثال هذا كثير في الآداب الغربية ، وليس له في الأدب العربي نظير ، وأسباب ذلك كثيرة يطول فيها الكلام فلنرجئها إلى فرصة أخرى تتسع لوجوه التعليل المختلفة .

ابراهيم عبد القادر المازني

في التاريخ السياسي :

المأساة الفلسطينية
ومشروع التقسيم البريطاني

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما تسربت الأنباء الأولى عن مشروع اللجنة الملكية البريطانية في تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وقبل أن يذاع تقرير اللجنة أبدينا في «الرسالة» أن هذا الحل الجديد الذي ابتكرته السياسة البريطانية لتسوية المسألة الفلسطينية لم يكن حلاً موفقاً ، وأنه لا يمكن أن يرضي أحداً من الفريقين المتنازعين

والآن وقد مضت أسابيع على ظهور تقرير اللجنة عن مشروع التقسيم ، وعرفنا إلى أي حد ذهبت اللجنة الملكية في استنتاجاتها وفي توصياتها ، وكيف استقبل العرب مقترحاتها بعاصفة من السخط والانكار المطلق لا في فلسطين وحدها ولكن في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وكيف اعتزمت فلسطين أن تستأنف النضال في سبيل حياتها وكيانها ، وكيف تغدو اليوم وشيكة انفجار جديد لا تؤمن عواقبه ؛ فانه يصعب علينا أن نعتقد أن الحكومة البريطانية التي أقرت مقترحات اللجنة على عجل لم تعتده في مثل هذه المناسبات الخطيرة ، ستغضى عن هذه العوامل الجديدة التي ظهرت في الميدان منذ ظهور التقرير ، والتي لا يمكن أن تعاون على استتباب السلام المنشود في فلسطين

إن مشروع التقسيم الذي تقترحه اللجنة يمزق فلسطين شر ممزق بل هو يقضي القضاء الأخير على كيانها القومي ويخرجها من عداد الأمم والمجتمعات ذوات المميزات الخاصة ويحرمها من كل أمل في التقدم والنهوض ؛ وإن نظرة واحدة إلى الحدود المقترحة لهذا التقسيم تكفي للحكم بأن فلسطين تمحى بمقتضاه من خريطة الوجود ولا يبقى منها برسم الدولة العربية الجديدة سوى صخور وبسائط صحراوية لم يتح للعمران طيلة القرون أن يذللها وأن يستثمرها ؛ وماذا عسى أن يبقى من فلسطين العربيـة إذا اقتطعت منها كل

سواحلها وثغورها وقواعدها المقدسة وكل بقاعها الخصبة ؟ إن الدولة اليهودية التي يشير التقرير بانشائها تشمل في الواقع كل قواعد فلسطين وثغورها التاريخية عدا ثغر يافا الذي يبقى وحده مخرجاً بحرياً للقسم الصحراوى الذى خصص للعرب ؛ أما بقاع فلسطين المقدسة التى لبثت علماً عليها طوال القرون فقد تقرر أن تؤلف منها منطقة خاصة توضع تحت إشراف عصبة الأمم أو بالحرى تحت إشراف الانتداب البريطانى ، وبذلك تجرد كل فلسطين من قواعدها التاريخية وكل ثرواتها ومواردها الاقتصادية فى مصلحة الدولة اليهودية الجديدة ؛ ومع ذلك فاللجنة الملكية تنوه فى تقريرها بأهمية هذا التقسيم بالنسبة للعرب ، وتقول لنا إنه « سيمكنهم من الحصول على استقلالهم الوطني والتعاون على قدم المساواة مع العرب فى البلاد المجاورة ، وذلك فى كل ما يؤول إلى وحدة العرب ونجاحهم وسيخلصون نهائياً من خوف تسلط اليهود عليهم ووقوع الأماكن المقدسة بيد اليهود »

على أن هذه الألفاظ المعسولة لا تغير شيئاً من الحقيقة الهائلة وهى أن مشروع التقسيم يمحو فلسطين العربية من خريطة الوجود لينشئ على أنقاضها وتراثها التاريخى مملكة اسرائيل وليحقق بذلك حلم اليهودية القديم ؛ نعم إن المساحة التى تضمها الدولة اليهودية الجديدة هي أقل مما تطمح إليه اليهودية ، ولكنها تحتوى كما قدمنا على أطيب مافى فلسطين من قواعد وثغور ، واليهودية تغدو فى هذا الحيز الضيق أقوي وأشد إيماناً بالمستقبل ؛ ثم هى مع ذلك بدء فقط ؛ واليهودية تأسف بلا ريب أن تخرج بيت المقدس من قبضتها وهى مثوى تراثها الروحى وذكرياتها المقدسة ، ولكنها تتعزى عن ذلك بخروجها من قبضة العرب أيضاً ، وكونها وهى فى يد انكلترا أقرب إلى نفوذهم ؛ ومن يدرى فقد تسنح الفرصة فيما بعد لاستردادها بطريقة من الطرق ، وبذلك يصبح ظفر اليهودية باحياء مملكة إسرائيل القديمة كاملا شاملا

والخلاصة أن مشروع التقسيم هو قرعة الفناء للأمة الفلسطينية وهي حقيقة لم يتردد العرب لحظة فى إدراكها ، ومن ثم كان رفضهم للمشروع بهذا الاجماع السريع المؤثر الذي هو عنوان الخطر القومي ، والذي تلوذ به الأمم المجاهدة فى مواقف الحياة والموت ؛ ولقد جاهدت فلسطين مذ نكبت بالانتداب والوطن القومي اليهودي فى سبيل حريتها وعروبتها ، ولم تقبل أن تكون ميداناً لهذه التجربة اليهودية الخطرة التى لم تكن تتوجها مع ذلك أية صبغة شرعية أكثر من وعد الحكومة البريطانية بمؤازرتها ، فكيف ينتظر منها أن تقبل اليوم أن تقوم فى قلبها وفى أطيب بقاعها مملكة يهودية تتمتع بصفة شرعية دولية ، تنازعها البقاء وتنذرها بالفناء العاجل بما هيىء لها من أسباب التفوق السياسى والاقتصادي والاجتماعى

* * *

ومن حسن الطالع أن الأمة الفلسطينية لاتقف وحدها فى هذا النضال الذى هو بالنسبة إليها معركة الحياة والموت ، فان شقيقاتها العربيات قد فزعت لفزعها وهبت من حولها تنصرها وتشد أزرها بالقول والعمل معا ، فألقى رئيس الوزارة العراقية تصريحاته الرسمية المعروفة فى إنكار مشروع التقسيم والحملة عليه بشدة ، وفى التنويه بما تعتزمه العراق من مقاومته باعتباره خطراً لاعلى فلسطين وحدها ولكن على الأمة العربية بأسرها ؛ ولم يقف رئيس الوزارة العراقية عند هذه التصريحات القوية الحازمة بل قدم احتجاجه بصفة رسمية إلى الحكومة البريطانية ؛ وأيد الشعب العراقي موقف حكومته بتنظيم مظاهرات الاحتجاج فى بغداد وغيرها ؛ وحذت الحكومة السورية حذو الحكومة العراقية فى القاء التصريحات الرسمية بمعارضة مشروع التقسيم ، وفى توجيه الاحتجاج الرسمى إلى لجنة الانتداب بعصبة الأمم ، وقام الشعب السورى بمظاهرات مماثلة لتأييد فلسطين فى موقفها ؛ وقامت مظاهرات مماثلة فى الحجاز ، وما تزال عواصم الجزيرة العربية كلها تضطرم بأمواج الاحتجاج والسخط على مشروع التقسيم والعطف على فلسطين وتأييدها فى جهادها . كذلك لم تكن مصر بمعزل عن هذه الحركة وإن تكن الحكومة المصرية قد آثرت أن تعمل فى صمت وهدوء ؛ فقد أعرب رئيس الحكومة المصرية فى بيانه الرسمى بمجلس الشيوخ عن اهتمام الحكومة المصرية بالقضية الفلسطينية وأشار إلى ماجرى من اتصاله بالحكومة البريطانية فى شأنها أكثر من مرة ، وإلى أنه عقب ظهور تقرير اللجنة الملكية قد بادر باستئناف هذا الاتصال والسعى بالمسائل الدبلوماسية إلى العمل على صيانة حقوق العرب

ومصالحهم ، مؤثراً ألا تكون هذه المساعى موضع المناقشة العلنية حرصاً على مصلحة فلسطين ذاتها ؛ هذا إلى ما أبدته الهيئات السياسية والوطنية المصرية من احتجاج على مشروع التقسيم وتأييد قلبي لفلسطين .

والواقع أن قيام اليهودية فى فلسطين في مثل هذا الحشد القوى المنظم ، خطر داهم لا على فلسطين وحدها ، ولكن على العالم العربى والاسلامى كله ؛ ويزيد هذا الخطر ويذكيه أن تنتظم اليهودية على هذا النحو إلى دولة ذات شخصية مستقلة تجثم في قلب العالم العربى ؛ وهذا الخطر متعدد النواحى ، فمن الوجهتين السياسية والاقتصادية يخشى أن تكون هذه الدولة الجديدة التى لايتأتى لها البناء إلا على ماتستطيع تقويضه من صروح الأمة العربية ، مصدر اضطراب دائم فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ؛ وخطرها السياسى على كيان الأمة العربية ظاهر لايحتاج إلى بيان ؛ أما خطرها الاقتصادى فنحن نعرف كيف تعمل اليهودية بوسائلها القوية المعروفة أينما حلت على الاستئثار بجميع الثروات والمرافق ؛ على أن هناك خطراً أشد وأفدح من قيام اليهودية فى صميم المجتمع العربى والاسلامى على هذا النحو ، هو الخطر المعنوى إذا صح التعبير ؛ ذلك أن اليهودية كما يشهد تاريخها الفكرى والفلسفى تضطرم دائماً بروح الثورة والانتقاض والهدم ، وقد كان هذا الروح الثورى الهدام مبعث كثير من الحركات الثورية الهدامة الخفية والظاهرة التى قلبت أوضاع المجتمع ، وبثت إليه كثيراً من عناصر الانحلال والفوضى ؛ ويكفى أن نمثل لذلك بالشيوعية التى تعتبر اليوم أخطر عناصر الهدم ، فهى من نفثات العقلية اليهودية ؛ ومذ حلت الصهيونية فى فلسطين ظهرت معها العناصر الشيوعية وأخذت تتسرب إلى مصر وسوريا والعراق ؛ وهذه العناصر الثورية الهدامة التى تحملها اليهودية معها إلى فلسطين ، تغدو إذا ما اشتد ساعد الدولة اليهودية الجديدة خطراً داهما على الأمم العربية التى تجثم فى صميمها .

والأمم العربية تقدر كلها هذا الخطر ، وكلها من وراء فلسطين فى درئه ومقاومته ؛ وقد أبدت فلسطين عزمها جلياً قاطعاً على استئناف النضال إذا لم تسمع شكايتها العادلة ، وإذا أريد أن تفرض عليها سياسة التقطيع والتمزيق بالقوة القاهرة . على أننا من جهة أخرى نعتقد أن السياسة البريطانية الفطنة لم يفتها أن تقدر ما كان لمشروع التقسيم من سوء الواقع ، ولم يفتها بالأخص أن تلاحظ موقف البلاد العربية والإسلامية الأخرى وما ينطوى عليه من دلائل لاتستطيع السياسة البريطانية أن تغفلها ؛ ومع أن الحكومة البريطانية قد وافقت على تقرير اللجنة الملكية عن مشروع التقسيم فان ذلك لايعنى أنها قد اتخذت خطتها النهائية إزاء المسألة الفلسطينية ؛ كذلك لم يتخذ البرلمان البريطانى أي قرار في شأن المشروع بالرغم من المناقشات العديدة التى جرت حوله والتى لم تخل من بعض ميول معارضة للتقسيم ، بل آثر أن يرجئ قراره حتى تنتهى لجنة الانتداب الدائمة لعصبة الأمم من بحث المشروع ، وهو الآن أمامها قيد النظر .

والخلاصة أن السياسة البريطانية لاتزال بالنسبة للمسألة الفلسطينية فى مفترق الطرق ، وهى إذا استطاعت أن تغفل اعتراضات العرب على مشروع التقسيم وإقامة الدولة اليهودية ، فانها لاتستطيع أن تغضى عن موقف الأمم العربية والاسلامية ، وهى جميعاً تؤيد فلسطين فى ظلامتها ومحنتها ؛ وانكلترا التى تربطها بالأمم العربية والاسلامية روابط صداقة متينة هى اليوم أشد حاجة منها فى أى وقت آخر إلى تأييد هذه الأمم ومحالفتها ؛ وموقع فلسطين والجزيرة العربية فى طريق المواصلات الأمبراطورية أمر جوهرى بالنسبة لمستقبل الدفاع عن الهند والأمبراطورية البريطانية ؛ فهذه العوامل كلها مما يحملنا على الظن بأن المسألة الفلسطينية قد تجوز تطورات هامة أخرى قبل أن يستبين المصير النهائى الذى قدر لها ؛ وللسياسة أعاجيب لاتفنى وكم سمعنا أيام اشتداد النضال بين مصر وانكلترا ، وعيد السياسة البريطانية بضم مصر إلى الأمبراطورية إذا لم تخلد إلى السكينة وتقبل المصير الذى يفرض عليها ، ولكن مصر لم تن للوعيد حتى اضطرت سياسة القوة الغاشمة أن تختفى ، وأن تترك المجال حراً لسياسة التفاهم والوفاق ؛ وكل مانرجوه فى هذه الكلمة هو أن توفق الأمة الفلسطينية المجاهدة فى دفاعها المؤثر عن كيانها ، وأن يكلل جهادها بما يحقق أمانيها وطمأنينتها .

بمناسبة اشراق دولة الفاروق الجديدة

لمحات من شمس الامس الغاربة

السلطان الغورى ومفاوضاته الدولية

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

تستقبل مصر اليوم عهدها الجديد المشرق بتولية مليكها المحبوب الذي يتربع فوق عرش القلوب ويحكم شعبه عن ولاء ثابت له فى حنايا الصدور . وعهد الفاروق وان كان جديداً ناضراً يستأنف عهود المجد السابقة ويسترجع آيات العلا الغابرة فقد كانت مصر أبدا واسطة عقد الدول وجوهرة تاج المدنية .

وإن لعهدنا الحاضر معنى خاصا فى تاريخ البلاد ، ونحن إذ نحتفل فى هذين اليومين بتتويج مليكنا المحبوب فإنا نشهد يوما من أكبر أيام مصر وأعظمها دلالة وأحفلها ببواعث الفخر والاعتبار والسرور ، وذلك لأن عهد الفاروق الجديد أول عهد يخفق فيه على مصر علم الاستقلال بعد فترة سلب الدهر منها علمها ونزع عنها تاجها . ونود هنا أن نتخطي القرون الماضية التى شهدت تلك المأساة فنطفر إلى آخر عهد كان فيها ذلك العلم عالياً مكرماً عزيزاً ، لنذكر فى نشوة السرور الحاضرة بعض ما كان لبلادنا من العز الغابر لنحس بالنشوتين معا نشوة الأمل الطالع ونشوة ذكرى المجد التالد .

كان قانصوه الغوري آخر السلاطين العظماء الذين حكموا مصر منذ انقرضت دولة الأيوبيين فى مصر فتعاقبوا على حكمها نحو ثلاثة قرون كانت مصر فيها أقوي أمم الشرق والغرب تبسط سلطانها على الشام والنوبة وبمتد نفوذها فى البحر حتى قبرص وتدين لها بلاد الشرق قاطبة بالزعامة وتتقرب اليها دول الغرب قاطبة لابتغاء ما عندها من كنوز التجارة ولتخطب مودتها فى السلم ولتتقي عداوتها فى الحرب ، وكانت مع كل ذلك قلب المدنية التى تكدست فيها آثار العلم والفن والصناعة التى بلغتها الإنسانية إلى ذلك الوقت

تولى قانصوه فى مارس سنة ١٥٠١ وهو جركسى الأصل . نشأ فى بيت الملك الأشرف قايتباي العظيم وما زال حتى صار أميراً من أمراء الجيش ووكلت اليه قيادة فرق الحدود المصرية فى طرسوس وكليكية وملطية . فلما مات قايتباي اختاره الملك الناصر ابنه لرياسة أمراء حلب وصار من كبار الأمراء الذين كان يقود كل منهم ألف فارس فى الحرب ، وكانوا لذلك يسمون (مقدمى الألوف) ؛ وبلغ بعد ذلك الى أكبر مراتب الدولة فأصبح دوادارا ثم وزيراً . وحدثت عقب ذلك احداث جعلت الناس يتطلعون اليه ليجعلوه سلطاناً . ولم يرض بذلك فى أول الأمر إذ كان يؤثر أن يكون أحد كبار الأمراء حتى لا يتعرض للمسئولية الجسيمة التى يتطلبها تبوء العرش . ولكن كبار الأمراء اضطروه إلى قبول التاج اضطراراً حتى قيل إنه بكى عند ما عجز عن مقاومتهم ونزل مرتين عن الجواد الذى أركبوه اياه ليسيروا به إلى القلعة ليحتفلوا بتوليته السلطنة بها

ولي الغورى عرش مصر ولقب بالملك الأشرف أبى النصر . وسار فى القاهرة عقب ذلك فى موكب حافل يحف به الأمراء وجنود الجيش المظفر ، وكان يلبس الخلعة الرسمية التى كانت عادة السلاطين أن يلبسوها وهى الخلعة التى أهداها الخليفة العباسى إلى السلطان العظيم بيبارس من قبل منذ نيف وقرنين عندما انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة عقب تحطيم التتار بغداد وقضائهم على الحكم العباسى بها .

سار السلطان قانصوه فى ذلك الموكب يلبس تلك الخلعة وهى عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق من الذهب حول العنق وسيف بدوى متدل من حمائله ، وحملت على رأسه المظلة الرسمية التى يعلوها رسم طير من الفضة المذهبة . وكان عمره عند ذلك نحو الستين وله لحية ضرب فيها البياض ، وهو بدين أسمر اللون واسع العينين .

وكانت مصر فى أيامه مركز حركة سياسية متصلة لا تنقطع لأن أحوال العالم فى وقته كانت تؤذن بشر انقلاب عرفه التاريخ الحديث

كانت اسبانيا قد تمكنت من طرد العرب من غرناطة ، ولم تكد مصر تفيق من تلك الهزة حتى سمعت بأن دولة أخرى مجاورة وهى البرتغال قد عرفت طريقاً الى الشرق تسير فيه السفن من بلادها إلى الهند مباشرة عن طريق البحر حول رأس الرجاء ، وكانت بلاد العالم كله تتطلع الى مصر لتنظر ما هى فاعلة فى هذين الحادثين وتترقب سير هؤلاء البحارة الذين هاجموا بحار الشرق ليروا أيستطيعون أن ينفذوا الحلم الذي تصوروه فى محاولة القضاء على تجارة مصر . وكانت مدن أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط كالبندقية تقف عند ذلك مشدوهة تنظر تارة إلى مصر

وتارة الى شبه جزيرة الأندلس ، وهي تحاول أن تحتفظ بمودة الأولى لتحتفظ بتجارتها معها وأن تحتفظ بمودة الثانية خشية على سمعتها بصفتها إحدى البلاد المسيحية الخاضعة للبابا والتي ما كان ينبغي لها أن تعادى المسيحيين فى سبيل نصرة المسلمين .

وكانت حدود مصر الشمالية تضطرب كذلك بين قوتين ناشئتين إحداهما قوة الشاه اسماعيل الصفوي فى بلاد العراق وإيران ، والأخرى قوة النزلاء العثمانيين فى بلاد الأناضول وأوربا ، فقد كان محمد الفاتح أتم فتح القسطنطينية وجعل عاصمة دولته فيها محل الدولة البيزنطية العظمي . وكان الشاه اسماعيل الصفوى قد جمع أكثر العراق وإيران فى دولة عظيمة تهدد الشرق كله بأن تكتسح بلاده وتبسط عليها مذهبها الديني الشيعي .

وكانت دولة الصفوى أشد دول الشرق خطرا على حدود مصر لأنها كانت تتبع طريق الدعاية والخفاء فى الاغارة على البلاد التى تليها . وكانت لا تتورع عن أن تحالف المسيحيين لتساعدهم على القضاء على عظمة الدولة الاسلامية السنية الكبرى وهى مصر

فكانت القاهرة بطبيعة هذه الظروف مركزا لتيارات مختلفة بعضها مقبل من الشرق وبعضها من الغرب ، لكل منها وجهة ولكل منها لون . وسننقل هنا بعض مناظر المفاوضات السياسية التي شهدتها أبهاء الحكم عند ذلك

كانت أسبانيا تدين لملك كبير وملكة عظيمة جمعا تاجى قشتالة وأرغونة فى سبيل توحيد كلمة مسيحيي الأندلس ، وتمكنا بذلك من القضاء على آخر أثر من آثار الحكم الاسلامى الذى كان لا يزال يتحصن فى غرناطة . وبلغت شكوى مسلمى الأندلس مسامع العالم الاسلامى ولاسيما دولة مصر ذات المجد التالد . وخشى عاهلا الأندلس أن يفتح ذلك عليهما باب الجهاد الصليبي القديم ؛ وشاعت إشاعات سوداء عن عزم سلطان مصر أن ينتقم من رعاياه المسيحيين للثأر لمن وقعت عليهم مظالم أسبانيا من مسلمى المغرب .

فعوّل ملكا أسبانيا على أن يرسلا من قبلهما إلى مصر رسولا عظيم المقام فى الدولة وهو « بطرس مارتير دانجير » وسار من غرناطة مارًا بفرنسا وإيطاليا وأبحر من البندقية فى سبتمبر سنة ١٥٠١ وبلغ الاسكندرية فى ديسمبر من ذلك العام

تردّد السلطان الغورى فى مقابلة ذلك السفير ولكنه سمح له بعد لأى بأن يمثل بين يديه ، وكان ترجمان السلطان « تنجرى بردى » من أصل أسبانى فساعد على تخفيف ما كان عند السلطان العظيم من الموجدة على سفير الملكين اللذين اشتهرا باضطهاد المسلمين وإذلالهم وإيقاع أشدّ صنوف الأذى بهم .

وقابل الرسول السلطان مرارا مقابلة علنية ثم سمح له بلقاء سرّى تمّ فيه اقناع السلطان بأن ما بلغه عن مظالم الحكم الاسبانى إنما هو من أكاذيب يهود الأندلس ، فانّ السفير أقنع السلطان العظيم أن وقعة ملكى الأندلس إنما كانت مسدّدة إلى اليهود ، وأن هؤلاء قد هاجروا من تلك البلاد وجعلوا يشنون الغارة عليها ويرمون مليكها بالظلم والعسف كذبا لإيغار صدور المسلمين وملوكهم على دولة أسبانيا الناشئة . فلم يعد ذلك السفير من مصر إلا بعد أن كتبت له معاهدة صداقة وسلام حملها معه وغادر القاهرة فائزا فى فبراير سنة ١٥٠٢

وكانت دولة البرتقال فى هذه السنوات قد أفلحت فى تثبيت أقدامها على شواطىء آسيا وجعلت تناصب مصر العداء فى بحار الهند فأثر هذا فى تجارتها حتى خلت أسواق بيروت والاسكندرية من الأفاويه التى كانت دول أوربا تتهافت على شرائها من تجار البندقية الذين يشترونها من أسواق مصر والشام . فثارت مصر لما أصابها من خسارة فى تجارتها وفى سفن أسطولها ، وأخذت تستعدّ لمقابلة عدوان دولة البرتقال بمثله وجهز السلطان فى الوقت نفسه بعثات سياسية أرسلها للمفاوضة مع البابا والبندقية ومع أسبانيا والبرتقال ، وكانت رسالاته تنطوى على رجاء المليك المتحضر للدول الأخرى أن ترعى حقوقه وأن تقلع عن معاداته حفظا للسلام كما كانت تنطوى على تهديد المسيحية بالايقاع بما للمسيحيين فى الشرق كله من مصالح ورعايا ومعاهد . وكان أول رسول له فى هذه المفاوضات هو رئيس دير جبل صهيون واسمه « فرا ماورو دى سان برناردينو » ثم أرسل بعد ذلك ترجمانه الخاص « تنجرى بردى » . ولكن هذه الرسائل لم تفض إلى نتيجة حاسمة ، واضطر السلطان إلى أن يعلن أنه سيعمد إلى القوة والبطش للانتقام . وما كاد يعلن هذا العزم حتى بادرت دول أوربا فأرسلت إليه سفراءها للاعتذار له وإظهار صداقتها ومودتها وأنها غير راضية عن الدول التى تسعى للاضرار بمصر أو تعمل على الكيد للمسلمين ، وكانت البندقية أولى الدول التى سارعت إلى إظهار المودة والصداقة لشدة الترابط بينها وبين مصر . غير أن الظروف أساءت إلى هذه

الصداقة الوراثية بين البندقية ومصر وكادت تصل بها إلى القطيعة والعداوة ، إذ اتفق أن ضُبط فى الشام فى شهر مايو سنة ١٥١١ . رجلان أحدهما من جزيرة قبرص واسمه « نيقولان سوربيه » وكانا آتيين من الشرق من بلاد الشاه اسماعيل الصفوى يحملان خطابين موجهين من الشاه إلى حكومة البندقية معنونين إلى « توماسو كونتارينى » قنصل البندقية فى دمشق و « بطرس زين » قنصلها بالاسكندرية . وكان السلطان العظيم قانصوه يرى فى الشاه الصفوى عدوا خطيرا . فلما رأى هذه المراسلة بينه وبين البندقية زاد حنقه على تلك الصديقة ورأى أنها تخادعه وتتظاهر بمودته في حين أنها تراسل عدوه الأكبر ، وأوشك الأمر أن يفضى إلى عداوة صريحة بينهما

فأمر السلطان بالقبض على القنصلين ، وقادهما إلى القاهرة وسجنهما بها وعزم على أن يعامل رعايا البندقية معاملة رعايا الدول المعادية فيقبض عليهم ويصادر أملاكهم وأموالهم ويقطع علاقته بدولتهم إيذاناً بالعداوة الصريحة .

وكانت فرنسا والبندقية تتنافسان على النفوذ فى الشرق ، فلما رأت فرنسا هذا التوتر فى علاقة مصر بالبندقية سارعت إلى إرسال سفير إلى السلطان ليوثق معه روابط المودة وكان هذا السفير اسمه « أندريه لرو »

ولما رأت البندقية أن فرنسا تسعى هذا السعى فى تلك الأزمة لم ترض أن تترك الميدان لمنافستها خشية ما يعود عليها من الضرر لو تغيرت سياسة مصر نحوها ، فبادرت بارسال سفير كبير لمقاومة مسعى فرنسا وكان سفيرها هو « دومنيكو تريفيسان »

وهكذا شهدت القاهرة فى سنة ١٥١١ معركة سياسية دولية لم يكن فيها سفراء فرنسا والبندقية هم المتنافسين على صداقة سلطان مصر فحسب ، بل كان إلى جانبهم سفراء آخرون بعضهم مسيحيون كسفراء (جورجيا) البعيدة ، وبعضهم مسلمون كسفراء النزلاء العثمانيين وسفراء شاه إيران .

ولعله من المناسب هنا أن نصف استقبال سلطان مصر لسفير البندقية مستمدين تفاصيل ذلك من كاتب صحب ذلك السفير .

قال شاهد العيان يصف رحلة السفير ومن معه إلى مقرهما بالقاهرة ويصف لقاء السلطان لهم :

« نزلنا ببولاق ثم سرنا إلى المنزل المعد لنا فى بقعة من أحسن بقاع القاهرة . وكان المنزل آية فى الفخامة والرواء لا يستطاع أن يوجد مثله فى بلد من البلدان . قيل إن نفقات بنائه بلغت مائة ألف دوقية . وكانت جدرانه مغطاة بالنقوش موشاة بالذهب وكانت أرضه مغطاة بالفسيفساء وأبوابه مطعمة بالأبنوس والعاج .

« وفى الغد أتت إلى السفير هدية من السلطان (وهنا وصف ما تحتوى عليه الصور) وفى يوم الاثنين ذهبنا إلى المقابلة الأولى لصاحب العرش وكان نظام المقابلة على النحو الآتى :

« جاء المهمندار والترجمان إلى السفير فى بيته ليصاحباه ، وركب جواده ومن حوله معيته بعضهم يركب خيلا وبعضهم يركب بغالا . وسرنا فى المدينة حتى بلغنا القلعة فنزل السفير ومن معه وصعدوا سلماً ثم دخلوا من باب يحرسه جماعة كبيرة من الجنود ثم دخلوا من أربعة أبواب واحداً بعد الآخر . وكان عند آخر باب منها فرقة موسيقى تصدح بالأنغام . ثم مررنا بعد ذلك بثلاثة أبواب أخرى حتى دخلنا إلى فناء صغير تحيط به حوائط قد علقت عليها أنواع السلاح والدروع وإلى جوانبها نحو خمسين رجلا يعملون فى صناعة السلاح المختلفة ، وقد علمنا أن هؤلاء العمال إنما أعدوا قصداً لا طوعاً لصناعة السلاح والاستعداد للحرب فانا ما كدنا نمر حتى ذهبوا جميعاً وتفرقوا .

« وأخيراً رأينا السلطان فى فناء القلعة الفسيح جالساً على مسطبة علوها نحو خطوتين فوق الأرض تغطيها قطيفة خضراء وعلى رأسه قلنسوة كبيرة يعلوها قرنان عاليان يبلغ كل منهما نصف ذراع . وكان يلبس قفطاناً من القطن الأبيض فوقه جبة من قماش لونه أخضر قاتم . وكان يجلس مربعاً ساقيه كما يجلس الخياطون عندنا وعن يمينه سيفه ودرعه وكانا لا يفارقانه أبداً . وكان عن يمينه على مسافة قليلة نحو عشرين من الأمراء الملكيين الذين يقود كل منهم ألفاً فى الحرب وقوفا ، وكلهم يلبسون الأبيض وعلى رؤوسهم قلانس مثل قلنسوته ، وكان سوى هؤلاء عدد كبير من المساعدين كلهم وقوف يملأون فضاء الفناء .

« وتقدم السفير حتى إذا ما وقعت عينه على السلطان رفع قبعته وانحنى إلى الأرض فلمسها بيديه ثم رفعهما إلى شفتيه وجبهته دلالة على مقدار احترامه للسلطان العظيم ، ثم سار مع من معه نحو خمسة عشرة خطوة وحيا مرة أخرى ، وكان عند ذلك قد صار

على نحو عشرين خطوة من السلطان . وكانت هذه المسافة تغطيها الأبسطة ولم يكن من المباح السير فوقها ، فحيا السفير تحيته الأخيرة وأخرج من صدره خطاب (الدوج) مكتوباً على ورق بنفسجي وقد ختم بخاتم من الذهب ولف برباط تدلى منه دلايات من الذهب ، وقبل السفير الخطاب ثم وضعه على رأسه وسلمه للمهمندار فناوله للسلطان ففتحه ثم أرجعه فقرىء له ، فلما انتهى من سماع ما فيه سأل السفير عن حال الدوج وصحته ، ولما انتهى السفير من الجواب حيا وتراجع إلى الوراء خارجاً هو ومن معه .

وقد تعددت المقابلات بعد هذه المقابلة الأولى ، كانت إحداها في بهو فسيح يقول فيه شاهد العيان : « وهذا البهو لا يمكن أن يقاس به بهو التشريفات الكبير في قصر الرياسة العظيمة في البندقية وذلك لعظمته وجماله ونفاسة نقوشه وأثاثه »

وكانت المقابلة الثالثة في ساحة الرميلة المجاورة للقلعة في حديقة خاصة بالسلطان في ذلك الميدان الفسيح .

وكانت المقابلة الرابعة في هذا الميدان نفسه ولكن في غير الحديقة وكان السلطان هذه المرة جالساً على منصة إلى جانب سور القلعة وكان يلبس ملابس كالتي كانت عليه في المقابلة الأولى ، وكذلك كانت هيئة الاستقبال كالهيئة السابقة . وتقدم السفير حتى صار على أربع خطوات من السلطان ثم وقف هو ومن معه وجعل يتكلم مع السلطان بصوت عال بوساطة ترجمانه ، وجاء في أثناء الاجتماع السيد « بطرس زين » قنصل البندقية في دمشق وهو المتهم بخيانة السلطان وكان يلبس ثوباً من قطيفة قرمزية .

واستمرت المقابلة ثلاث ساعات كان السفير في أثنائها واقفاً يحمل قبعته في يديه وكان موضوع الحديث علاقة البندقية بدولة الصفوي ، وكان السلطان يتكلم غاضباً في لهجة قاسية ولهذا كان السفير يبذل الجهد لكي يهدىء من غضبه ، وكان كل همه أن يظهر براءة حكومة البندقية من كل سعي ضد مصر فنظر السلطان إلى السفير وصاح به قائلا : —

« أنا أعلم أن حكومة البندقية بريئة من السعي ضدي ولكن هذا الكلب (مشيرا إلى قنصل البندقية بدمشق) يعمل على خيانتي وقطع علاقتي بدولتك » وكان السلطان وهو يقول ذلك يضطرب أشد الاضطراب من الغضب فاستمر السفير في خطابه يحاول الدفاع عن دولته ، فصاح به السلطان قائلا : « أيها السفير — هل تعلم كيف سارت الأمور ؟ إذا كنت قد أتيت سفيرا للصدق فرحبا بك ، وأما إذا كنت قد حضرت لتدافع عن الخونة وعن أعدائي فلا مرحبا بك ، فاترك بلادي وخذ معك مواطنيك من تجار بلادك »

فعاد السفير يلاطف في حديثه وقال : « إنني أجهل ياسيدي السلطان ما كان من هذا القنصل . ولكني أؤكد براءة دولتي وصفاء مودتها لكم . فاذا كان عندكم مايدل على كذب قولي فأنا مستعد أن أرهن حياتي على صدق ما أقول . وأما إذا كان القنصل قد أضر بمولاي بجهله وغباوته ، ولا أستطيع أن أسلم بأنه يقصد إلى ذلك قصدا ، فان حكومة بلادي كفيلة بعقابه على جرمه الشنيع ؛ فأسلمه لي لأعود به إلى بلادي ليلقى بها جزاءه بعد تحقيق دقيق . وسياقي من الجزاء مايعلن للعالم كله صدق مودتنا لكم وتعلقنا بكم »

ثم قام السفير ووضع بيده غلا حول عنق القنصل المتهم . ولما انتهت المقابلة عاد السفير راكباً واقتيد القنصل سائرا على قدميه حتى وصل إلى البيت الذي كان السفير نازلا فيه .

وفي هذه المقابلة تناول الحديث موضوع الجزية المفروضة على قبرص وكانت البندقية تدفع تلك الجزية كل سنة لمصر .

وتعددت المقابلات بعد ذلك وكانت مقابلات خاصة بلغ عددها سبعا ، وفي المرة الأخيرة استأذن السفير السلطان في السفر فأذن له وخلع عليه خلعة من القطيفة المحلاة بالفراء حول رقبتها .

وكان نجاح ذلك السفير في هذه المفاوضات عظيما فانه استطاع أن يحصل لدولته على معاهدة صداقة صريحة جدد بها عهود المودة الأولى .

وهكذا بقيت مصر مركزا عظيما للتوازن السياسي والاقتصادي بين الدول يقصدها الجميع ويتقرب إليها الجميع إلى أن أراد الله أن تفجعها دولة شرقية في استقلالها وعظمتها — تلك الدولة التي كانت مدينة لمصر أكبر دين في نشأتها وتقدمها — وهي الدولة العثمانية التي لولا حماية مصر لها في نشأتها ووقفاتها الكريمة في الدفاع عن المدنية الاسلامية أمام هجمات تيمور لما كان لها في العالم وجود .

ولكن إذا كان القضاء قد قدر لها أن تفقد استقلالها عند ذلك فقد شاء كذلك أن يعود لها ذلك الاستقلال عزيزا مجيدا لتعيد إن شاء الله سيرة عظمتها ولتستأنف قصتها في القيام برسالة المدنية والسلام في العالم الجديد .

محمد فريد أبو حديد

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

في اللغة العربية :

من المشكلات العويصة التي تواجهها اللغة العربية في هذا العصر ، مشكل قلما انتبه له المشتغلون باللغة ، لأنه يتعلق بموضوع لا يمكن يوماً ما أن يكون ذا علاقة بشئون الحياة العامة تلك الشئون التي يوجه لها الناس عادة معظم اهتمامهم ، ويصرفون فيها أكثر مجهودهم ، ويوجهون نحوها أخص عنايتهم .

ذلك بأن الموضوع الذي سنتكلم فيه له علاقة بنواح علمية صرفة ، قلما يحتاج إلى النظر فيها غير العلماء المختصين ، وندر أن يحتاج إليها كاتب أديب ، أو شاعر مستجدد أو مستقدم . هذا بالرغم من أن أفق الأدب قد اتسع مداه ، وتصور الشعر قد تعالى إلى أسمات لم يفكر فيها الأقدمون .

أما المشكل فينحصر في وضع أسماء عربيـة لأفراد الحيوان والنبات تعين الأشخاص والطبقات المختلفة بما فيها من الفصائل والعشائر والمراتب والأجناس والأنواع . ولقد كثر الجدل حول هذا الموضوع ولم يستقر الرأي فيه على شيء يصح الأخذ به ؛ فان لكل رأي من الآراء رأياً يناقضه ، ولكل أسلوب من الأساليب التي قيل بها أسلوباً ينابذه ، والأمر فوضى لا ضوابط له ولا حدود ، ينتحيها المترجم أو واضع الاصطلاح ، حتى يأمن أن يخرج له ناقد برأي جديد يسفه ما ذهب إليه . وكل مالا حدود له ، لاعلم فيـه . فالعلم أولَ شيء حدود وضوابط ، هي أشبه بالمنطق عند القدماء . ومنطق العلم من شأنه البيان والتعين فأن ماهو مدخول بشك ليس من العلم الثابت في شيء . فما بالك بمسألة علميـة ، كالتي نحن بصددها ، لم يتفق باحثان على قاعدة واحدة يمكن أن تتخذ أساساً للنظر فيه ؟

ظلت العربية واقفة وعجلة الزمان من حولها تدور ، وتسارع دورانها في خلال القرنين الفارطين ، حتى بعدت الشقة بين الحياة الجديدة ومطلوبات العلوم والفنون ، وبين اللغة العربية ، حتى أن الفرق ليروع كل واقف على حقيقة الهوّة التي تنفصل بين العلوم والآداب ، وبين قدرة اللغة العربية على تأدية مدلولات مصطلحاتها في كلمات أصيلة مضرية الأصل أو صحيحة الاشتقاق .

ولقد انحصر الخلاف بين الناظرين في هذا الموضوع في نقط ثلاث : الأولى القول بالتعريب ؛ والثانية القول بالنحت ؛ والثالثة القول بالاشتقاق . ولا بد من الكلام في كل نقطة من هـذه النقط لنظهر ماوراءها من مناحي القوة والضعف ؛ حتى نخلص في النهاية برأي ، آمل أن أكون قد وفقت فيه .

أما القول بالتعريب فرأي الذين يريدون اختصار الطريق وأخذ الأمر بنواصيه الظاهرة ، دون خوافيه . ولا شك في أن العرب قد نزعوا هذه النزعة ، وجنحوا هذا الجنوح . ويريد القائلون بالتعريب أن يتخذوا مما عمل العرب ركيزة يرتكزون عليها تعزيزاً لرأيهم فيه . غير أن هؤلاء لم يفطنوا إلى أشياء من أوجب الواجبات أن تكون دستور القول في مثل هذا الأمر . فالعربي أول شيء قد عرب وفي نفسه سليقة العرب وفي لسانه فصاحتهم وفي لغته بلاغتهم ، وهذا أمر يتطلب منا الحكم في مَن مِنّـا يمكن أن يكون ذا سليقة عربية أو ذوق عربي يقارب ذوق الأقدمين أصحاب اللغة ؟ هذا شيء . وهنا لك شيء آخر فإن العربي لم ينزع إلى التعريب إلا مكرهاً ، بدليل القلة النادرة في ماورد من الألفاظ المعربة مقيسة على الألفاظ العربية الأوزان الصحيحة الاشتقاق . وهذا يدل على أن قاعدة العرب كانت الاشتقاق على الصيغ التي كان يرى العربي أنها أصلح لأداء المراد . وهذا أمر له من الشأن مالم يفطن له الأكثرون . ذلك بأني أعتقد أن العربي لم يزن ما اشتق من الأسماء خبط عشواء ، وإنما راعى في اشتقاقها سليقة خاصة به . وبعد هذا وذاك ينبغي لنا أن نعرف أن التعريب ليس من السهولة بحيث يتصور الداعون إليه ، بل إن من أسماء الحيوان والنبات أكثرية مطلقة يفضل العرب أن يصوغ لها اسماً عربياً كائناً ما كان على أن يعربها فتكون غليظة غلظ الجبال ، لندرة مايوافق تركيب حروفها جَرْسَ تركيب الحروف العربية من حيث المخارج وتلاؤم ذلك في الألفاظ العربية .

على أن جملة هذا القول لا تغني عن التصريح بأننا في حاجة إلى التعريب ، ولكن بقصـد وقدر معلوم ، على أن نتقيد في

التعريب بقواعد، أخصها أن يكون المُعَرَّبُ على وزن عربي من الأوزان قياسية أو سماعية حتى يلائم جَرْسُه جَرْسَ الكلمات العربية، وحتى لا يحس منه المتكلم بالعربية نفوراً أو يجد فيه تنافراً مع ما تأتي من صيغ نعته الكريمة.

ومع القول بأننا في حاجة إلى التعريب، ينبغي أن نلحظ أن لجوءنا إليه إنما تدعونا إليه ضرورة قصوى يقف عندها جهدنا في البحث والاستقصاء وتقليب كافة الأساليب بكامل وجوهها.

ننتقل من هذا إلى الكلام في رأي يقول به المؤيدون لنظرية التعريب إطلاقا، وبلا قيد. هم يقولون إن أسماء الحيوان والنبات لغة علمية عالية، لا ينبغي لنا أن نزايلها بوضع ألفاظ أو مصطلحات عربية تقصينا عن جو العلم. وفي هذا القول وجوه من الضعف ووجوه من القوة. ذلك بأن القائلين بهذا الرأي قد فطنوا إلى حقيقة وغابت عنهم حقائق كثيرة، لم يجعلوا لها وزنا في كفتي الميزان الذي اتخذوه وسيلة للحكم في موضوع من أدق الموضوعات التي تتصل بحياة اللغة العربية.

أما الحقيقة التي لم تغب عنهم، فقولهم بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالية. وهذا ما ليس إلى نكرانه من سبيل. أما الذي غاب عنهم فحقيقة ذات علاقة شديدة بالحقيقة التي لم تغب عنهم. ذلك بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالية في اللغات الأعجمية أي في اللغات « الاندوجرمانية »، وليس في اللغات السامية. ولا أظن أن هذا الفارق ضئيل بحيث لا يعتد به، بل على العكس من ذلك أعتقد أن ذلك الفارق من أكبر الفوارق التي تحفزنا إلى القول بأن أسماء الحيوان والنبات إن كانت عالية في اللغات « الاندوجرمانية »، فلن تكون بالنسبة للغات السامية إلا أسماء غريبة لا تمت اليها بأي سبب من الأسباب.

أضف إلى ذلك أن جهادنا في سبيل اللغة العربية ينبغي أن يتجه متجهاً واحداً، هو أن تصبح هذه اللغة قادرة على الاستقلال بمصطلحاتها العلمية والفنية والأدبية، بمعنى أنها تصبح لغة العلم ولغة الأدب ولغة الفن في مدارسنا ومعاهدنا بحيث نستطيع أن نؤدي بها أغراض المعرفة من غير استعانة بلغة أخرى. ولنفرض مثلاً أننا أردنا أن ندخل طرفاً من علم الحيوان في كليات الأزهر فهل يمكن لنا أن ندخله من غير أن تكون اللغة العربية تامة المقدرة على أداء المعاني والأسماء الضرورية لدرس هذا العلم الكبير في وسط لا علاقة له بغير اللغة العربية؟ وكيف تصبح اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون، ما لم تكن تامة الوسائل لأداء أغراض العلم لطلاب لا يعرفون غير العربية؟ وهل من الممكن بعد هذا أن ندرس هذا العلم ونحشو العبارات العربية الصريحة بألفاظ يونانية ولاتينية، لا ينطقها أهلها الأصليون في بعض الأحيان إلا بصعوبة؟ وليجرب معي بعض حضرات طلاب الأزهر قراءة الجمل الآتية:

إن « الأورنثيرونكهوس پارادوكرس » حيوان ثديي بيوض يعيش في أوستراليا! والأنترشكوس طروغلوديطس حيوان من البريمات يعيش في أفريقية! والأرخوپتريكس طائر منقرض!

على هذه الصفة تكون عبارات علم الحيوان في العربية، إذا أردنا أن نلزم التعريب الحرفي الذي يوافق اللغة العالمية في اللغات « الاندوجرمانية » (الهندية الجرمانية). ولعمري كيف يستطيع عربي لا صلة له باللاتينية واليونانية أن ينطق هذه الكلمات الأعجمية المنحوتة من مقاطع متباينة وأهجية متنافرة نطقاً صحيحاً كما تنطق في لغتها العالمية التي يتغنى بها فئة من ذوي الرأي لم يفطنوا إلى الصعاب التي تكتنف نظريتهم، بل إنهم لم يحاولوا أن يفطنوا لها

***

ننتقل الآن إلى رأي القائلين بالنحت، وهم ولا شك أقل من القائلين بالتعريب. أما النحت فباب يلحقه اللغويون بفقه اللغة، ولكل من مشهوري اللغويين رأي فيه. فمن رأي السيوطي أن معرفته من اللوازم. وعرفه ابن فارس في كتابه « فقه اللغة » فقال: إن العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار واستشهد بقول الخليل:

أقول لها ودمع العين جار ... ألم يحزنك « حيعلة » المنادي

والحيعلة من قول « حيَّ على ». قال ابن فارس:

« وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت، مثل قول العرب للرجل الشديد « ضِبَطْر » من « ضبط وضبر »؛ وفي قولهم « صَهْصَلِق »، إنه من « صهل وصلق »؛ وفي « الصِّلْدِم » إنه من « الصلد والصدم » وقد ذكر ابن فارس مذهبه هذا مفصلاً في كتابه مقاييس اللغة.

ومن كلام ياقوت في معجم الأدباء:

« سأل الشيخ أبو الفتح عثمان بن عيسى الملطى النحوي، الظَّهيرَ الفارسيَّ عما وقع من ألفاظ العرب على مثال «شقحْطب» فقال: هذا يسمى من كلام العرب المنحوت، ومعناه أن الكلمة منحوتة من كلمتين، كما ينحت النجار خشبتين يجعلهما واحدة. فشقَحْطب منحوت من « شقَّ وحطب ». فسأله الملطي أن يثبت له ما وقع من هذا المثال إليه، ليعوِّل فى معرفتها عليه، فأملاها عليه فى نحو عشرين ورقة من حفظه، وسماها كتاب « تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب » اهـ. وهذه الوريقات مفقودة على الأسف.

وحكى الفرَّاء عن بعض العرب « معى عشرة فأحْدِهِنَّ لى » أي صيرهن أحد عشر اهـ.

وقد ذهب اللغويون إزاء النحت مذاهب. فمنهم فئة لا تقول برأى ابن فارس. إذ لو صح رأيه إذَنْ لأصبح النحت كثيراً فى اللغة، وبذلك يمكن القياس عليه ويطَّرد فى كثير من الأحوال ومنهم فئة تقول برأيه. ولا شك فى أن قليلاً من التأمل يرجح قول ابن فارس فى أن كل الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت. وأقرب مثل على هذا كلمة « قُرْدُوح » أى القرد الكبير فهى بلا شك منحوتة من « قَرْد » و « دَوْح » والقرود تقر فى الدَّوْح، فسمى العرب واحدها قُرْدُوح، وما كان أكثر تسامحهم، ما دام جرس الكلمة جارياً على الذوق العربى السليم.

وسواء أكان النحت أصلاً من أصول الوضع الصحيحة فى اللغة أم كان غير ذلك، فان الرأى غير متفق على اتخاذ النحت أساساً من الأسس التي يلجأ إليها فى وضع الألفاظ الاصطلاحية الجديدة. ذلك بأن القول بأن اللغة العربية لغة اشتقاق، وليست لغة نحت، جعل الذين يريدون التوسل بالنحت إلى وضع المصطلحات الحديثة يتريثون طويلاً. ولكنا بالرغم من هذا نعرض الأسئلة الآتية:

أولاً — أيعتبر النحت قياسياً أو سماعياً؟ وما حد القياس والسماع فيه باعتبار أقوال فقهاء اللغة؟

ثانياً — أيجوز أن نجرى على النحت فى وضع المصطلحات التى نعجز عن ترجمتها أو تعريبها تعريباً يفى بحاجات اللغة؟

ثالثاً — أيفسد النحت اللغة العربية إذا روعى فيه

(١) أن يكون المنحوت على وزن عربى نطق به العرب (٢) ألا يكون نابياً فى الجرس عن سليقة اللغة (٣) أن يؤدى حاجات اللغة من إفراد وتثنية ونسب وإعراب

رابعاً — أيجوز أن تنحت ألفاظ على غير وزن عربى عند الضرورة، أم تقتصر على أن يكون المنحوت على وزن عربى إطلاقاً

خامساً — هل كون اللغة العربية لغة اشتقاق فى بنيتها، ينافى النحت مع مراعاة شروط خاصة كالتي سبق أن ذكرناها؟

سادساً — إذا أضفنا إجازة النحت إلى الاشتقاق، أيكون هذا توسيعاً فى اللغة وتيسيراً، أم تضييقاً وتعسيراً؟

* * *

وقبل أن نمضى فى شرح ما نراه حلاً لهذا المشكل الكبير ينبغى لنا أن نلقى نظرة فى التعريب والنحت، لنقول إنهما فى أكثر الأحوال عسيرين كل العسر، شاقين كل مشقة، جامدين كل جمود، وبخاصة إذا كثرت مقاطع الكلمات الأعجمية المراد تعريبها أو تعددت حروفها إلى ما فوق الخمسة، أو تكونت من أكثر من لفظ كما فى أسماء الأنواع من النبات والحيوان. وكذلك فى النحت فقد نجد أن حروف الكلمتين المراد نحت كلمة منهما قد تنافرت حتى ليتعذر نحت كلمة منهما توافق الجرس العربى.

على أننا بالرغم من كل هذا، وبالنظر إلى كثرة الأسماء التى نريد إيجاد مقابلات لها فى العربية، وهى تعد بالملايين ينبغى توسيعاً لأقيسة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون والآداب أن نعتبر التعريب والنحت أصلين من أصول الوضع فى اللغة، على أن نحذر من التمادى فيهما كل الحذر، وألاَّ نلجأ إليهما إلا عند الضرورة القصوى ما دامت أوزان اللغة وصيغها تواتينا بحاجتنا من الأسماء التى نطلبها.

* * *

بقى علينا بعد ذلك أن نعرف هل تواتينا اللغة العربية بما نحتاج إليه من الأسماء؟ إن لى فى هذا رأياً جديداً لعلى أوفق إلى تبيانه فى الأسطر التالية.

جمدت اللغة العربية بتعنت اللغويين، كما جمدت الشريعة الاسلامية بتعنت أصحاب المذاهب. فان القول بقياسية الصيغ وسماعيتها، بنسبة الكثرة والقلة، بالرغم من أنها صيغ سمعت من أعراب أُصَلاَء، قد أصاب اللغة بجمود لم يبلغ الشعور بقسوته بقدر ما بلغ فى زماننا، ولم يأنس جيل من أبناء العربية بمقدار

أثره فى تقييد أساليبهم العلمية بقدر ما أنس جيلنا هذا . فان أكثر الصيغ التى وردت منها أسماء النبات والحيوان صيغ سماعية ، ومعنى أنها سماعية أنه ممنوع عليك أن تقيس عليها وأن تصوغ على غرارها أسماء جديدة تدل على حيوان أو نبات لم يذكره العرب ، على قلة ما تستطيع أن تعين من أشخاص الحيوان والنبات التى ذكرها العرب لضعف التعاريف أو فقدانها كلية .

فلم يبق أمام الواضعين للأسماء الجديدة إلا الصيغ القياسية ، وهى قليلة مقيسة بالعدد الوافر الذى ورد فى كلام العرب من الصيغ التى اعتبرها اللغويون سماعية . وهذه القيود الثقيلة التي لا مبرر لها إلا مسألة إحصائية قيدت اللغة وقيدت الواضعين بقيود وصفدتهم بأغلال ، هي السر الوحيد فيما يقال عن عجز اللغة العربية عن مجاراة اللغات الأخرى في الأسماء الدالة على الأشياء الحديثة ، ذلك فى حين أن إجازة الصوغ على تلك الصيغ التى قيل إنها سماعية يفتح على اللغة أبواباً واسعة تجعلها تفوق كل لغات الأرض فى القدرة على الوضع اللغوى الأصيل الذى لا يخرج عما اتبعه العرب من الأصول التى جروا عليها فى بناء لغتهم المجيدة .

ولا أريد أن أذهب هنا مذهب القائلين بأن كل ما قيس على كلام العرب ، ويقصد بهم العرب الأصلاء إلى نهاية القرن الثالث الهجرى ، فهو من كلام العرب ، وعلى رأسهم الامام ابن جنى ، على ما أري فى رأيه من رجحان ، بل أريد أن أتواضع قليلا فأقول إن الظرف العلمي يحفزنا إلى التسليم ، على الأقل ، بالقول بأن كل الأوزان التى صاغ منها العرب أسماء الحيوان والنبات قياسية ، بصرف النظر عما ورد منها قلة وكثرة فى كلام العرب . فاننا بذلك نوسع حقيقة من أقيسة اللغة ، وتقل حاجتنا إلى التعريب والنحت ، حتى لأكاد أومن بأن حاجتنا إليهما تنعدم تقريباً ، وإنى لأفضل اسماً مصوغاً على صيغة نطق بها العرب ، مع مراعاة الشروط التى اتبعوها فى الوضع والتى سأشرحها بعد ، على اسم معرب أو منحوت مهما حسن جرسه فى السمع . فاننا بذلك نحافظ على سلامة اللغة ونكون قد أمنَّا التطوح باللغة فى مهاوى الفساد الذى سوف يؤدى إليه التمادى فى التعريب بالجلة ، إذا اتبعنا رأى بعض المتطرفين الذين لم يتذوقوا بعد لِلُغة العرب طعما

على أن العربى لم يجر فى وضع الأسماء على غير قاعدة ، بل إنه اتبع قاعدة أوحى إليه بها طبيعة الظرف الذى أحاط به فى مختلف البيئات التى عاش فيها ، وساعدته سليقته على تطبيقها . فانك إذا تأملت الأمر بعض الشيء ، ألفيت أن العربى كان ينظر فى الشيء فيلحظ فيه كثيراً من الصفات ، فاذا غلبت فى الشيء صفة صاغ له اسماً مستمداً من اللفظ الذى يدل على هذه الصفة والأمثال على ذلك كثيرة لا تحصى . ولا بأس من أن أُورد هنا بعضاً منها .

الإسْليح : نبات ؛ قال أبو حنيفة الدينورى : واحدته إسلحة طوال القصب ، فى لونه صفرة تأكله الابل . وقيل هو عشبة تشبه الجرجير ، وينبت فى حقوف الرمل ، والأولى أكثر (ابن سيده) . وقيل هو نبات سُهْلى ينبت ظاهراً ، وله ورقة رقيقة لطيفة وسَنِفة محشوة حباً كحب الخشخاش . وهو نبات مطر الصيف يُسلِح الماشية (ابن خالويه واللسان) اهـ . فأخص صفة لحظها العربى فى النبات أنه يسلح الماشية أي يسهل بطونها ، فسماه الاسليح

الرَّتَم والرَّتيمة : قال أبو حنيفة : الرتم والرتيمة نبات من دقّ الشجر كأنه من دقته شبه بالرتم ، وهو الخيوط (اللسان) وقيل إنه شجر له زهر كالخيرى وحب كالعدس (ابن سيده) والرتمة خيط يعقد فى الأصبع للتذكير (ج) رتم كالرتيمة (ج) رتائم ورتام وأرْتمة ، والرَّتَم محركة نبات كأنه من دقته شبه بالرتم زهره كالخيرى وبزره كالعدس (القاموس ١١٦ : ٤)

السُّلْتُ : قال الليث شعير لاقشر له أجرد . زاد الجوهرى : كأنه الحنطة . وعن أبي حنيفة : هو صنف من الشعير يتجرد من قشره كله . وعن اللسان : وينسلت حتي يكون كالبرّ سواء

السُّمْنة : عن أبي حنيفة : دواء تُسمَّنُ به النساء

الشَّعارير : صغار القثاء ، الواحدة شعرورة ، سميت بذلك لما عليها من الزَّغب

الظُّفرَة : نبات حريف يشبه الظفر فى طلوعه (التاج)

الظِّلامُ ؛ والظالم ، قال الأصمعي : هو شجر له عساليج طوال وتنبسط حتي تجوز أصل الشجرة ، فمنها سميت ظِلاماً

العَصب : شجرة تلتوى على الشجر وتكون بينها ، ولها ورق ضعيف ؛ وفى اللسان شجرة العصبة نبات يلتوى على الشجر ،

وهو اللبلاب اهـ . والاسم تشبيه بعصابة الرأس لأنه يلتوى على غرارها

العَطفُ : نبات يلتوى على الشجر ، لا ورق له ولا أفنان قال ابن بَرّى : العطَفة : اللبلاب ، سمى بذلك لتلويه على الشجر

العِقدُ : شجر ورقه يلحم الجراح (التاج)

فمن هذا يظهر لك أن العربي لم يجر فى وضع الأسماء على غير قاعدته ، وإنمـا كانت قاعدته أن يلحظ فى الشئ صفة ، فيرجع إلى لغته حتى يقع على الكلمة التى تؤدى معنى تلك الصفة ثم يصوغ منها الاسم على وزن يلذ فى أذنه جَرْسُـه

على أن لنا فى لغتنا العربية من الأصول ما يقابل كل الأصول التى نحت منها الفرنجة أسماء الحيوان والنبات يونانية كانت أم لاتينية . فاذا استعنا بالصيغ السماعية على ما بين أيدينا من الصيغ القياسية ، انفتح أمامنا الباب المغلق ، وخرجنا إلى الرحاب الواسعة وحافظنا على سلامة اللغة أن يطيح بها التقريب السقيم ، أو يتلاعب بها من ليس فى مقدورهم تفهم أصولها وأساليبها

والسبيل المعقول هو أن نكب على جمع أسماء النبات والحيوان ثم نعرف من أية الصيغ وردت ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملا بقدر الامكان ، ثم نجيز قياستها والصوغ عليها فى أسماء الحيوان والنبات . فاننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التي جرى عليها العرب مادمنا سنراعى شرط لحظِ الصفة في المسمى على ما عمل أسلافنا طيب الله ثراهم ، فان تسمحهم في هذا الشأن ، يضطرنا إلى القول مع الأئمة الذين قالوا من قبل « إن كلاماً قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب »

وإن لغتنا لواسعة وإن لنا فى أقيستها وصيغها التى وردت على لسان العرب ، ما يكفل لنـا وضع الأسماء الجديدة التى يظن البعض أن وضعها من المستحيلات . وإني جرياً على القاعدة التى شرحتها هنا ، لقمين بأن أضع اسماً لأى نبات أو حيوان لا اسم له فى العربية ، مصوغاً على ما ورد فى كلام العرب

وقد جمعت حتى الآن من أسماء النبات أكثر من ألفى اسم ، وسأضع فى هذا الموضوع رسالة آمل أن تكون مبدأ عهد جديد في صوغ أسماء عربية للحيوان والنبات

اسماعيل مظهر

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢ —

نسبه ومولده :

الرافعى سورى الأصل ، مصرى المولد ، إسلامي الوطن : فأسرته من (طرابلس الشام) ، ضم ثراها عظام أجداده ، ويعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بنى عمه وخئولته منذ أكثر من قرن ؛ وهو فى وطنيته (مسلم) : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : « وطنى . . . » فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية... » أو « الوطنية السورية ... » أو « الوطنية العراقية . . . » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه دارى من هذا البلد ، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذى يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم ، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامى الأكبر ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد

وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعى وبعض الأدباء فى مصر ، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه فى وطنيته ، أعنى مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه فى ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ، ثم يقول : أفتراهم يتهموننى فى مصريتى لأننى فى زعمهم غير مصرى وفى مصر مولدى وفى أرضها رفات أبى وأمي وجدى ، أم كل عيبى عندهم فى الوطنية أننى صريح النسب ؟ . . . وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟

ومن أين مَقْدمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

***

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، فى نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين ، مامنهم إلا له تاريخ مشهود وجهاد مشكور ومسجد ومزار .

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعى ، قدمها فى سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية فى مصر بأمر من السلطان ؛ وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الامام أبى حنيفة فى القضاء الشرعى بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس فى مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة [1] ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبى حنيفة حتي آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم فى وقت ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعى ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها فى بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الانجليزية .

وقد تخرج فى درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعى أكثرُ علماء الحنفية الذين نشروا المذهب فى مصر . ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير والشيخ محمد بخيت مفتى الدولة السابق

ولما توفى المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنفية فى مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعى ، فدعاه الخديو عباس إلى تولي وظيفة الافتاء ، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرُّج وخشية ، فلم يجد فى نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرُّجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى فى شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل فى الخصومات بين الناس . . . فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفى نفسه همّ ، وهو يدعو الله ألا يئول إليه هذا الأمر ضناً بدينه ومروءته . . . وتمت مراسيم التولية ، وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتي الدولة) ثم نزل الى عربته فركبها عائداً الى داره وهو يتمتم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الحوذي ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فاذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضى فى شئون العباد . . . واستجاب الله دعاءه . . . !

وأبو الأستاذ الرافعى هو المرحوم الشيخ عبدالرزاق الرافعي ، كان رئيساً للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعي . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرزاق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفى طنطا كانت إقامته الى آخر أيامه ، وفيها مات ودُفن ، وفيها أقام مصطفى صادق وإخوته من بعد أبيهم فى بيته ، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً ، لايعرفون لهم وطناً غيرها ولا يبغون عنها حولا . ولقد حاولت وزارة الحقانية أكثر من مرة أن تنقل مصطفى إلي غير طنطا فكان يسعي سعيه لالغاء هذا النقل ، حتى لايفارق البلد الذى فيه وفاة أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوى . . . [1]

---

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس فى مصر أحد من ولده ، ومع ذلك تستطيع أن تحصي من آل الرافعى فى مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعى كثيرة الولد ، فما منهم إلا له ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ؛ وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعى (والد المترجم) يبلغون الآن واحدا وسبعين ولدا وبنتا ، وأن الشيخ عبد الرازق هذا هو واحد من أحد عشر أخا تولوا كلهم وظائف عالية فى القضاء الشرعى ؛ وقد مات المرحوم مصطفى صادق وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولد له منها أحد عشر ولدا وفتاة افترط منهم واحدة فى سنتها الأولى وخلف عشرة يبكون فقده . . . ! !

(١) كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة ، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية ربما استطعت أن أجلو منها شيئاً على قراء الرسالة فى غير هذا العدد . وكان الرافعي إذا أم مسجد السيد البدوى للصلاة اتخذ مجلسه تحت القبة فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وهو يهتز وعيناه مسبلتان ؛ فاذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح يده على صدره ، ثم يمضى وما تزال شفتاه تتحركان بكلام ... وكان بيت آل الرافعى القديم فى طنطا ، قريباً من مسجد السيد البدوى ، فى حارة سيدي سالم ، وهى حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوى أوي إليها أول ماهبط إلى طنطا منذ ألف سنة ؛ وكانت إلي عهد قريب هى مجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوى واللائذين به .

وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة فى الدين وشدة في الحق ، مابرح يذكرهما له مع الاعجاب معاصروه من شيوخ طنطا .

حدثني نسيب قال : « كنت غلاماً حدثا ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعى من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً فى متجر جاره وصديقه المرحوم الحاج حسن بدوى الفطاطرى ، فى شارع درب الأثر ، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ ففى عصر يوم من رمضان ، كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمر به رجل ينفث الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعا الشرطى أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره فى رمضان فى شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاعة الشفعاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم فى (زفّة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ حده بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ولا يجيزه ، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضى المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام »

وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون وأحسب أن هناك صلةً مابين أسرة الرافعى فى طرابلس الشام وبين الامام الرافعي المشهور صاحب الشافعي ؛ وقد سألت المرحوم الأستاذ الرافعى مرة عن هذه الصلة ، فقال : لا أدري ، ولكنى سمعت من بعض أهلي أن أول من عُرف منا بهذا الاسم شيخ من آبائى كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر فى مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعى تشبيهاً له بالامام الكبير الشيخ محمود الرافعى صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم .

والأستاذ الرافعي حنفى المذهب كسائر أسرته ، ولكنه درس مذهب الشافعى وكان يعتدّ به ويأخذ برأيه فى كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كأبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخى ماتزال معروفة هناك ، على أنه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي . وكانت إقامته فى (بهتيم) من قري مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها وُلد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى يناير من سنة ١٨٨٠ م [1] ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى بيت أبيه .

وكانت أم الرافعى تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرّها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس ، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا ، وقد شيّعها الرافعي على عنقه إلى مقرها !

* * *

علم وثقافة :

لأسرة الرافعي ثقافة أسميها كما يسميها الأستاذ اسماعيل مظهر (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشىء منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين ، وتجعل منه خلفاً لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه . والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [2]

وعلى هذه النشأة نشأ المرحوم مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيراً من أخبار السلف ، فلم يدخل المدارس المدنيـة إلا بعد

---

(١) لا نعرف للرافعى (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد الموجودة بملف خدمته فى وزارة الحقانية هى لأخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وقد كنت أحسب مولده فى سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، وبأحدهما أخذ الأستاذ الزيات فى مقالته عنه بالرسالة غداة نعيه . ثم وقعت لي بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يثبت فيها أن تاريخ ميلاده فى يناير سنة ١٨٨٠ فبها أخذت هنا .

(٢) يتخذ الرافعى فى بيته امرأة قارئة حافظة ؛ تقرأ كل يوم ماتيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن فى وقت فراغهن من المدرسة ، وتقيم ألسنتهن في تلاوته .

ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقضى سنة فى مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية[1] ، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنُّه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل ؛ ومن زملائه في المدرسة الابتدائية الأستاذ الجليل منصور فهمي بك ، ونيازى باشا وأحسبه قال لى : إن منهم كذلك الشارع القانونى الكبير عبد الحميد بدوى باشا

ومن أساتذته فى المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدى خليل المفتش بوزارة المعارف ، وكان يدرس له العربيــة ؛ وكان الرافعي ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة فكان الأستاذ مهدى يسخر منه قائلا : « يا مصطفى ، لا أحسب أحداً غيرى وغير الله يقرأ خطك ! » وقد ظل خط الأستاذ الرافعي رديئاً إلى آخر أيامه ، ولكن قراء خطه قد زادوا اثنين : هما سعيد العريان والعمال فى مطبعة الرسالة ...

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء المرحوم الرافعي وتكشف عن شئ من خلقه : فقد صحبنى مرة منذ عامين إلى نادي دار العلوم ، وما أكثر ما كان يصحبنى إليــه إذا هبط القاهرة . وجلس وجلست معه فى جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقي نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعي يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للأستاذ الرافعي حديث محدّثه مكتوباً فى ورقة ، وبينما نحن كذلك والحديث يتشعب شعبه وينسرب فى مساربه ، والجمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعي واقفاً ، فانتبهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدى خليل يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الرافعي يطأطئ له وينحنى يهم أن يقبل يده ؛ ثم عاد إلى مجلسه فمال علىّ يقول فى همس : « هــذا أستاذى مهدى خليل . . . » وفى صوته رنة هى

أقرب إلى صوت طفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يُسرّ إليه ... ومضى الأستاذ مهدى غير عابئ ولا ملتفت بما فيه من طبيعة المرح وعادة الاغضاء ، وأحسبه لم يعن بالسؤال عن هذا الزائر الذى نهض له أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم

* * *

وفى السنة التى نال فيهـا الرافعى الشهادة الابتدائية — وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية — أصابه مرض مشف أثبته في فراشه أشهراً — وأحسبه كان التيفويد — فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً كان حبسة في صوته ووقراً في أذنيـه من بعد .

وأحس الرافعى آثار هذا الداء يوقر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليـه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسمعيه عاما بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو . . . حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ، ثم تبعتها الأخرى، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئا مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فعقد عقدة فى حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام ، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام في وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ظلت فى حلقه حبسة تجعل فى صوته رنينا أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة . . .

وكانت بوادر هذه العلة التى أصابت أذنيه هى السبب الذى قطعه عن التعليم فى المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التى أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه ، وكان هو فيها المعلم والتلميذ

وحظ الرافعى من الشهادات العلمية حظ أبيه ، فان الشيخ عبد الرازق الرافعى على علمه وفضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية فى كثير من الأقاليم — لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف على بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ،

---

(١) جاء فيا كتب الأستاذ الزيات عن الرافعي أن دراسته فى المنصورة كانت بمدرسة الفرير . وأحسب هذا قد جاءه من أن المرحوم الرافعي كان لايعرف من اللغات غير الفرنسية والعربية ؛ ولكن اللغة الأجنبية فى مدارس الحكومة كانت إلى ما بعد الاحتلال بقليل هى الفرنسية ، ولم تدخلها اللغة الانجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم ...

فتقدم إلى امتحانها ونالها ، لغير غرض يسمى إليه إلا أن يستكمل براهينه في جدال بعض العلماء . . .

وكان لأبي الرافعي مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نوادر كتب الفقه والدين والعربية ؛ فأكبَّ عليها مصطفى إكباب النهم على الطعام الذي يشتهيه ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة في مجالسة أحد ، وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه ، وكان يحس في نفسه نقصاً في ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال في ناحية ، وكان يُعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث ، وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا في دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة في قراءة أخبار الناس ، وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث ، وقال لنفسه : إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعوني فليسمعوا مني . . . وبذلك اجتمعت للرافعي كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوي الجسد الذي هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديب العربية في غد . . . !

كانت مكتبة الرافعي في هذه الحقبة من تاريخه ، هي دنياه التي يعيش فيها ، ناسُها ناسه ، وجوُّها جوُّه ، وأهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رُواته ، وأدباؤها سُمَّاره ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فما لقم ، فنشأ ذلك نشأة السلف . يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفه أفراحهم ، وتتراءى له أحلامهم ومناهم

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلا لغشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم — فان حظه من العامية المصرية كان قليلا ، وكان عليه أن يسألني أحياناً أو يسأل غيري من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يسمع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شيء من ذلك ، وكان يمزح معي أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لي قاموس العامية . . . »

وإذ كان أبوه وأمه غريبي عهد بمنبتهما في سورية ، وكان لم يسمع أكثر ما سمع في طفولته إلا منهما — فان لهجته في الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سوري ، ولكن مصطفى كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النميمة على هذا الأصل ، وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم تُجدِ على الرافعي معرفته الفرنسية إلا قليلا أو أقلَّ من القليل ، فمنذ انتهى من المدرسة لم يجد في نفسه إليها نزوعاً قوياً ، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار في العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء ، ولو أنك كنت تسمعه أحياناً يأسف على هجرها ويمني نفسه بالعودة إليها في وقت فراغ ؛ وهيهات أن يجد الرافعي فراغا من وقته .

هذه ثقافة الرافعي وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل هذا على الدأب في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه كأنه من التعليم في أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية .

وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلا يحيِّيه ويستمع لما يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه : « تعال نقرأ . . . » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمر في القراءة . . .

وفي القهوة ، وفي القطار ، وفي الديوان ، لا تجد الرافعي وحده إلا وفي يده كتاب . وكان في أول عهده بالوظيفة كاتبا بمحكمة طلخا ، فكان يسافر إلى طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه في الذهاب وفي الاياب (ملازم) من كتاب أي كتاب ليقرأها في الطريق . وفي القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الامام علي ، وكان لم يبلغ العشرين بعد . . . ؟!

(لها بقية) « طنطا » **محمد سعيد العريان**

تصويب : جاء في الجزء الأول من هذه المقالات المنشور بالعدد ٢١١ أن الرافعي توفي صباح الاثنين ١٤ مايو ، وهو خطأ صوابه الاثنين ١٠ مايو ، وكان يومه الأخير هو الأحد ٩ مايو سنة ١٩٣٧

إبراهيم باشا

موقعة نصيبين

— ٢ —

واستقبل حافظ باشا الأمير ألاي والبكباشي الذي كان يصحبه أحسن استقبال ، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده في اليوم التالي . وكانت الروح السارية في هذا الرد من أوله إلى آخره هي أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال . ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدإ إلى قوله إنه لايعترف بأن التهم التي يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح ؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لاالجنود الشاهانية هي المعتدية ، وجاء في ختام هذا الخطاب مايأتي :

« لقد أعطيت لنفسي الحرية في كتابة هذه الرسالة الودية ، لتكون دليلا على حسن نيتي ؛ وقد أرسلتها مع الأميرالاى حاذق بك وبصحبته الأميرالاى أجمد بك من ضباط الجيش الشاهاني المظفر . وعند ما تصلكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل بما فيها على حكمتكم السامية » [١] .

وبينما كان القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو ، كان رسول يستحث الخطي إلى إبراهيم ، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة ٩ يونية سنة ١٨٣٩ يقول فيها :

« تسلمت رسالتك التي تقول فيها إن العدو يواصل زحفه وإنه احتل الآن تستين قرية وراء عينتاب ، وإنه وزع السلاح على الأهالي وحرض العصاة على مهاجمة عكّار [٢] وسلب أموال حاكمها وقتله . وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة ، وطلبت إليّ أن أخبرك بما تفعل .

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نقفه ، لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال ؛ وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضة رغبات الدول الكبرى ، زاد عدونا إيغالا في بلادنا وزادت الأمور حرجا . وتلك حال ترغمنا على العمل ؛ فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدي فإن الدول لن تلقى التبعة علينا .

« فنصيحتي إليك أن تبادر عند وصول رسالتي إلى يديك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا في أرضنا ، وأن لا تكتفي بإخراجهم منها ، بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله » [١]

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم في غسق الليل ؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع فجر اليوم التالي . ورأى سليمان باشا (الكولونيل سيف ساعد إبراهيم الأيمن ، الذى طالما أشرنا إليه في هذا الكتاب) غير هذا الرأي ، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين في جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة ؛ وطلب الضابط الفرنسي أن يستكشفا بنفسهما تلك المواقع قبل الهجوم عليه . ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائما إلى حكم العقل ، فقد قبل هذا الرأى عن رضى وطيب خاطر .

وفي صباح اليوم التالى اضطلع القائدان نفسهما بتلك المهمة الخطيرة ، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركى . وما زالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التى اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو ، وأن ليس في مقدورهما أن يستوليا عليها عنوة [٣] ، لأن فون ملتكه وفون ملباخ ندبا معسكر الأتراك عند سفح التل الذى يجرى عنده نهر كرزين [٢] وجعلا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركى . ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخري . وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل في اختيار هذا

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٧

(٢) بلد صغير واقع على بعد ٣٢ كيلو مترا من شرق طرابلس والذين هجموا عليه في ذلك الوقت هم المتاولة . (المعرب)

(١) فنتر نيبه في كتابه السالف الذكر ص ٣٠٩

(٢) المصدر عينه ص ٣١٢ .

(٣) هو نهير يصب في الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى . وقد كتبه المؤلف وفنتر نيبه كرسيم وكتبه فريد بك قرصيم ، ولكن الخرائط التى اطلعنا عليها . وكذلك كدلفين وزميله والرافعي بك يكتبونه كرزين (المعرب)

الموقع المنيع الذى اتخذه الجيش التركى لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية ، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبأوا بالحركة الجريئة التى سوف يقدمان عليها

والحق أنهما لم يخطئا التقدير ، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خطتهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك . وقد وصف تلك الخطة إيميه ڤنترنييه Aimé Vingtrinier صاحب سيرة سليمان باشا بقوله :

« وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفلحت وأوهاما من عقل مخبول إذا أخفقت . ولكنه كان مؤمناً بصوابها ، واستطاع أن يبث هذا الإيمان فى الجيش كله لافرق بين قائده الأعلى وأصغر جندى فيه »[1] .

وكانت الخطة التى نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسئوليته هى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتئذ ، ويسير مخترقا قرية مزار[2] ، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل ؛ ثم يلتف حول جبل بيازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو موليًا وجهه شطر الجنوب فى اتجاه قرية كرد قلعة[3] ، وكانت الفكرة التى بنيت عليها هذه الحركة كلها هى : أولا أن ڤون ملتكه عند مايرى أن الجيش المصرى قد رفع معسكره لايشك مطلقاً فى أن قواد هذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه ، وهو تعريض جناحهم للخطر ، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشطر الأول من خطتهم قبل أن يدرك حقيقتها . وثانياً أن ڤون ملتكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى ليهاجم منها المصريين قبل أن يصلوا إلى أماكن آمنة ، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد

(١) المصدر عينه ص ٣١٤ .

(٢) تقع هذه القرية جنوبى نصيبين بغرب . (المعرب)

(٣) فى الجزء الأول من كتاب كدلفين وبرو وفى كتاب الرافعى بك رسم واضح لموقعة نصيبين ومواقف الجيوش المحاربة والأماكن الواردة هنا فليطلع عليه من شاء . ولم نعثر فى جميع المصادر التى اطلعنا عليها على اسم القرية التى يسميها ڤنترنييه والمؤلف Kardikala ويسميها كدلفين وزميله Coadikala ، وقد راجعنا من أجل ذلك من المصادر التركية قاموس الأعلام لشمس الدين سامى بك ومعجم التاريخ والجغرافيا لعلى جواد بك والكتاب السنوى لولاية حلب وبعض الأطالس التركية عدا المصادر العربية الكثيرة ، واستعنا بمن نعرفهم من أفاضل الأتراك والسوريين . وأكبر ظننا أن الاسم الذى أثبتناه هنا هو الاسم الصحيح (المعرب)

التركى ، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق الألمانى الضعيف .

ويقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب ورفعوا إليه استقالتهم ، فلما فعلوا ذلك قال لهم السر عسكر : « إن الجنـدى لا يستقيل قبيل الموقعة » . وكان هذا الالتجاء إلى المبادىء الخلقية العسكرية كافياً لحل المشكلة ، فلم ينسحب ڤون ملتكه بل أفرغ وسعه فى معالجة هذه الحال الطارئة ، فعـدل خططه ونقل مدافعه التى أصبحت عديمة الفائدة لأن المصريين أبوا أن يقدموا أجسامهم طعاماً لنيرانها ، ووضعها حيث يمكنه الاستفادة منها . وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالى ، وكان يخشى أن تكون نتيجتها وبالاً على الجيش العثمانى ، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية ، فأبى أن يتبع البديهيات الأولى فى فن الحروب ، وخرق مبادئها الأولية . ولشد ما تألم ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمله . ولا شك فى أنه كان يعتقد أن أمثال ماكماهون Mae Mahon وبازين Bazaine[1] ممن يتمسكون بالقواعد والأصول ، خير من رجال كإبراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم .

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين . وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هـذه الخطة الحربية . وقد يكونون مصيبين فى ظنهم لأننا لاندعى لأنفسنا تلك الخبرة بالفنون العسكرية التى تمكننا من أن نبدى رأيا فى هذا الموضوع . وكل الذى يعنينا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين ، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار لا يلوى آخرهم على أولهم . وعندئذ وقع الاضطراب فى صفوف الجيش العثمانى كله فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع .

وأقبل إبراهيم على خيمة حافظ باشا . وقد وصفها ڤنترنييه وصفاً لا نعتقد أنه كان جاداً فيه ؛ لأنه قال « إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد ، مزخرفة كأنها حجرة استقبال

(١) قائدان من قواد الحرب الفرنسيه الألمانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) هزمهما الجيش الألمانى فى هذه الحرب . (المعرب)

لأحد الأباطرة العظام ، يبهر الرأئي جلالها وعظمتها » [١] يبدو على هذا القول كثير من المبالغة ، ولكن الذي لا شك فيه أنه كان فى هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة بالصدف ، البعيدة عن الذوق والجمال الفنى بعدها عن النفع ، ثمنها عظيم ولكن الجالس عليها فى عنـاء . وقد ترك بعضهم على هذه الأريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله .

فلما دخل ابراهيم هذا المسكن المؤقت المترف ، الذي لا نشك فى أن قون ملتكه كان يعده مخالفاً للسطرين الثالث والرابع من الفقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد المائتين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش فى الميدان ، كان يكسوه العثير ويتصبب من جبينه العرق . ولمـا رأى هذه الأبهة الكاذبة تبسم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء ، ومشى من فوره إلى الأريكة غير حافل بالأوسمة التى لم تكن لها قيمة فى نظره ، لأنه أكبر من أن يهتم بهذه الصغائر . ولكن الوثائق المتروكة وما قد يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره ، فوقف يفحصها وإذا به يجد فيها فرماناً يعين حافظ باشا والياً على مصر بدل والده [٢] فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد فيها من المعلومات ما له قيمة حربية . وبعد أن وكل هذه الأمور إلى من يعنى بها ، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين ، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر

ويقول لنا القنصل اليوناني العام فى تقريره المرسل إلى أثينا إن ابراهيم كتب إلى محمد على من خيمة حافظ باشا نفسه ينبئه بهزيمة الأتراك ، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين ، وأن البشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة في اليوم الثالث من شهر يوليه [٣] ؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الاسكندرية حيث كان الباشا مقيماً فى ذلك الوقت [٤] وجاء فى تقرير قنصلى آخر أن مدافع الجيش لم تطلق أكثر من ساعة ونصف ساعة ، وأن الأتراك زلزلت أقدامهم فجأة ، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين ، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسير ، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر فى هذا التقرير [١]

ولم يعش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مغامرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشاً ، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصيبين ، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التى حلت بالجيش التركي إلى الآستانة . ويقول الڤيكونت بنسنبي فى موته : «لا شك فى أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهور ، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه »

وماذا كانت علة السلطان يا ترى ؟ لقـد اختلف الأطباء فى تشخيص مرضـه ، فأما الطبيب الانجليزى الدكتور ملجن Dr Milligen الذى عرض عليه فقال إن محموداً قضى نحبه بسبب اضطراب فى المخ ناتج من إدمان المسكرات ، وقال الدكتور نونر Dr Neuner الذى كان يعالجه إنه مات بذات الصدر ، ووافق الحكيم باشي التركى كبير أطباء القصر على رأى الطبيب البريطانى [٢]

(يتبع) محمد بدران

---

(١) فنترنيه فى كتابه السالف الذكر ص ٣٣٠ .

(٢) مصر فى القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعه فى باريس بوازار ص ٤٥٤ ؛ والكتاب مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمد مسعود .
(المعرب)

(٣) فى الأصل الانجليزى ٣ يونية ولقد استنتجنا من أول الأمر أنه ٣ يولية ثم رجعنا إلى المصدر الذى اعتمد عليه المؤلف وهو كتاب « النزاع بين تركيا ومصر » فوجدنا تسزا يقول بصريح العبارة إن الأخبار وصلت إلى الاسكندرية من القاهرة بطريق البرق في ٣ يولية ثم تأيد النبأ فى المساء بخطاب جاء بالبريد . (المعرب)

(٤) يوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٠

---

(١) يولينس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٢

(٢) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٠٦ وما بعدها .

مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره

لباحث عربي كبير

تتمة ما نشر في العدد الماضي

الأماكن المقدسة

لم تكتف اللجنة الملكية بحرمان العرب من قسم فلسطين الطيب، مورد حياتهم، بل سلخت القدس وبيت لحم ومنطقة واسعة توصلهما بالبحر عن البلاد العربية، ووضعته مع غيره تحت انتداب بريطاني دائم، بحجة أن المحافظة على هاتين المدينتين « أمانة مقدسة فى عنق المدنية » ، كأن العرب لا يعرفون المدنية وكأنهم لا يدركون مقدار ما لهذين المكانين من قداسة

إن العرب هم أكثر الشعوب تقديساً للقدس وبيت لحم، والانكليز يعرفون ذلك، غير أنهم اتخذوا مبدأ « المحافظة على قداسة القدس وبيت لحم » وسيلة لسلخهما عن البلاد العربية، وتسهيلا لتحقيق المآرب اليهودية فى هذا الجزء من البلاد المقدسة

مهدت اللجنة الملكية فى تقريرها السيطرة اليهودية على هذا القسم من فلسطين، فهى توحى بأن تكون لغته الرسمية الانكليزية لتزول مع الزمن منه الثقافة العربية والروح القومية. ومهدت السبيل لأن تكون أكثرية موظفى الحكومة فى هذه المنطقة من اليهود. إذ هى تقول (صفحة ١٣٨) بأنه لو لم يكن هناك الانتداب الحالى على فلسطين، لاعتبرت الحكومة اليهود والعرب جماعة واحدة، ولا نتخبت من بينهم الموظفين حسب كفايتهم لا حسب جنسيتهم، كما هى الحال الآن، ولكان أكثرية هؤلاء الموظفين من اليهود لأنهم أكثر كفاية وأكثر مقدرة. وتقول اللجنة بعد ذلك بأن الانتداب الجديد (صفحة ٣٨٢) لن يجعل ثمة مجال للبحث فى حفظ التوازن بين ادعاءات العرب إزاء اليهود أو بالعكس، لأن الحكومة ستنظر إلى جميع السكان نظرة واحدة. ومعنى هذا أنها سوف لا تراعي النسبة بين الموظفين، بل ستأخذ الأقدر والأفيد لها. والموظفون اليهود أقدر بكثير من الموظفين العرب فى نظر لجنة اللورد بيل

ومتى أصبحت اللغة الرسمية الانكليزية، ومتى أصبح الموظفون من الانكليز واليهود، صعب جداً على العرب العيش فى هذه المنطقة من بلادهم واضطروا إلى النزوح عنها، فتصبح الأكثرية الساحقة فيها من اليهود. وحتى لو فرضنا أن عرب هذه المنطقة سيظلون فيها، فان اليهود سيتسللون إليها وسيصبحون فيها أكثرية. وعندها يطلبون إجراء استفتاء سائلين سكان هذه المنطقة فيما إذا كانوا يريدون الانضمام إلى « المملكة اليهودية » أو إلى « المملكة العربية » . وتكون النتيجة الانضمام إلى « المملكة اليهودية » ، ووضع اليهود أيديهم على الأماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية، وإقامة هيكل سليمان مكان الصخرة الشريفة... وستجد الحكومة البريطانية عذراً لذلك تبرر به عملها قائلة بأنها تحب العدل ولا ترغب فى حكم جماعة رغم مشيئتهم !...

ثم إن القدس مدينة كبيرة، يعيش أهلها على الوظائف والموظفين العديدين الذين فيها، وعلى التجارة مع القرى. فمشروع التقسيم يحرم أهل القدس من الوظائف ويقلل عدد موظفى المدينة، ويقطع القرى التى تتعامل مع القدس عنها. وسيحل حينئذ أزمة اقتصادية شديدة يقاسى سكان المدينة العرب آلامها...

***

تقول اللجنة الملكية إنه « يجب أن يلقى على عاتق الدولة المنتدبة أيضا عبء المحافظة على الأوقاف الدينية وعلى الأبنية والمقامات والأماكن الواقعة فى أراضى كل من الدولتين العربية واليهودية والمقدسة لدى العرب واليهود » . وهى فى هذا القول تريد إيهام الرأي العام بأن فى المملكة العربية مقدسات يهودية ! والحقيقة أن ليس لهم فى القسم المنوي إبقاؤه عربياً شيء من هذا القبيل. أما العرب فلهم فى مشروع « المملكة اليهودية » جوامع وكنائس وأوقاف دينية وأبنية ومقامات وأماكن مقدسة عديدة، تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة عليها ! لقد رأينا قيمة تعهدات الحكومة البريطانية ومدى ما يمكن الاعتماد عليها...

ثم ما الفائدة للعرب من بقاء جوامع وكنائس ومقامات مقدسة فى قسم من بلادهم يرغمون على الرحيل عنه ؟ إن العرب يقدسون الجوامع والكنائس مادام فيها مصلون، أما إن قدر للشعب العربى أن يرحل عن وطنه (وهذا لن يكون) فخير له أن تنسف الجوامع والكنائس، وأن تمحى آثاره المقدسة، من أن تبقى أثراً يذكر الأجيال بأنه كان فى هذه البلاد شعب عربى لم يعرف كيف يحتفظ بها...

دولة يهودية

إن لمشروع تقسيم فلسطين فائدة واحدة، ذكرها اللورد بيل في تقريره، وهي تحقيق أحلام اليهود من تأسيس مملكة لهم في الأرض المقدسة.

لقد منح تصريح بلفور اليهود وطنا قومياً في فلسطين، يعطيهم الحق في القدوم إلى الأراضي المقدسة وسكناها دون أن يغير ذلك كيان العرب وحقوقهم. غير أن هذا التصريح لم يحقق آمال اليهود؛ على أنهم قبلوه ليكون وسيلة لتحقيق تلك الآمال. وجاء اللورد بيل وأوصى بالغاء الانتداب القائم على تصريح بلفور، وإعطاء اليهود مملكة في أطيب قسم من فلسطين، مستقلة تمام الاستقلال، ولها ما لأكبر الدول من سيادة ومكانة. ومثل هذه الدولة لا تحقق آمال اليهود كلها، بل هي إلى إحياء الصهيونية، بعد أن كادت تفشل، ووسيلة لإيصال اليهود إلى غايتهم الرئيسية، وهي: إنشاء دولة يهودية ممتدة من النيل حتى الفرات، واستعمار الشرق الأدنى، لاسيما الشرق العربي، استعماراً اقتصادياً.

إن تأسيس مملكة يهودية في فلسطين أو في قسم منها، مهما كانت رقعته، خطر عظيم على الشرق العربي أجمع. لأن منح اليهود مملكة معناه تقوية نفوذهم في جميع أنحاء العالم، وسيطرتهم على الدوائر السياسية الدولية، سيطرة تجعل لدولتهم، مهما كانت صغيرة، أهمية دولية لا تقل عن أهمية كبار دول العالم. ويتلو ذلك تزلف الدول لهذه الدولة القوية، فتأخذ في عقد محالفات معها، تضمن للدولة اليهودية حرية العمل في الشرق الأدنى لاسيما في بلاد العرب منه.

وفي أثناء ذلك تكون «الحكومة اليهودية» آخذة في حشد اليهود في «القسم اليهودي» من فلسطين. وقد صرح رجالاتهم من الآن، بأنه سيبلغ عدد اليهود في هذا القسم عما قريب خمسة ملايين، جلهم من الشبان والشابات الصالحين للعمل. لهذا ستكون قوة التجنيد عندهم معادلة، ان لم تكن أقوى، لقوة تجنيد بلاد عادية يبلغ سكانها خمسة عشر مليوناً. وستدرب الحكومة اليهودية هذا العدد الكبير من الرجال والشبان والنساء على الأعمال الحربية. وسيكون لديها جيش قوي مجهز بأحدث عدد الحرب. وزيادة على الجيش المحلي فإن للدولة اليهودية جيوشاً احتياطية منتشرة في جميع أنحاء العالم. لأن كل يهودي خارج فلسطين سيعتبر نفسه جنديا في جيش «الدولة اليهودية» وسيلبي النداء مهما كان بعده عن الأراضي المقدسة. وليس في العالم قوة تحول بين ملايين اليهود وبين الانضمام إلى جيشهم في فلسطين... وإن حوادث اسبانيا الحالية خير برهان على ذلك.

وقسم المملكة اليهودية من فلسطين لا يتسع بصورة طبيعية لأكثر من مليون. فمتى وجد فيه ثلاثة ملايين إن لم نقل خمسة أو أكثر، اضطروا بحكم الطبيعة إلى التوسع، ولا توسع لهم إلا في البلاد العربية. أما استيلاؤهم على بقية فلسطين وشرق الأردن فسهل متى كان لهم مملكة، لعوامل اقتصادية عرضناها فيما تقدم. ومتى استولوا على «المملكة العربية» المنوي خلقها زاد عددهم في فلسطين، حينئذ يوجهون وجههم شطر سوريا ولبنان. وعندذلك، مهما كانت شجاعة العرب، ومهما كان صبرهم على القتال، لا يكون في مقدور جيش القطر السوري الشقيق، حتى وإن عاضده بقية البلاد العربية، الوقوف أمام جيش «المملكة اليهودية» العديد والمجهز أحسن تجهيز حربي حديث... ومتى زال استقلال سوريا، هدد العراق، ومصيره أن يجزأ بين الطامعين فيه، يدخل قسم منه في المملكة اليهودية. أما مصر فستجابه خصما عنيداً يكون عونا لأعدائها عليها...

ولنفرض أن لا خوف على استقلال سوريا والعراق ومصر السياسي من «الدولة اليهودية»، فإن هذه البلاد سوف لا تنجو ولن تنجو من استعمار اليهود الاقتصادي لها. فوجود دولة يهودية في فلسطين أو في قسم منها معناه زوال كل ما لمصر من أمل في زعامة البلاد العربية ثقافياً واقتصادياً، إذ ستكون الدولة اليهودية حائلا بينها وبين هذه البلاد، وسوف لا تنجو هي من استعمار اليهود الاقتصادي. ومعناه أيضاً زوال كل ما للعراق من أمل في تقوية الرابطة بين البلاد العربية، وتوحيدها، ومن وصوله إلى البحر الأبيض المتوسط. أما سوريا، بما فيها لبنان، فان لم يزل استقلالها زوالا نهائياً، فستكون تحت نفوذ الدولة اليهودية سياسياً واقتصادياً...

إن وجود «مملكة يهودية» في فلسطين أو في قسم منها، ضربة قاضية لآمال العرب (بما فيهم مصر)، وسبب لفقدان السلام والهدوء من الشرق العربي. لهذا يجب على كل عربي أن لا يرضى أبدا بتقسيم فلسطين، ولا يمكن الحكومة منه. ويجب على جميع البلاد العربية أن تتساند وتحول دون تأسيس مملكة يهودية في قسم من فلسطين، فتحول بذلك دون وقوع الأخطار العديدة التي ذكرنا بعضها.

اقتصادي

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٥ —

كتاب البوذية

جمع تلاميذ بوذا الأولون حكمه وعظاته وتعاليمه ومناهج حياته العملية وضموا إليها قصصاً عجيبة وأساطير شيقة عن التجسد والتناسخ، وأخرى حوت كثيراً من معجزات بوذا وخوارقه للعادة وغير ذلك، فبلغت هذه المجموعة نحو عشرين مجلداً أطلق عليها كتاب «السلال الثلاث» ولكنها لم تكن مصونة صيانة «الفيدا» ولا صيانة «البيرانات» أو أى كتاب آخر من كتب البراهمة التى أقامت حولها القداسة سياجا من المناعة حفظها من التبديل. ولهذا مازج كتاب البوذية كثير من الخلط والعبث والانتحال حتى دس على بوذا مالم يدر له بخلد أو يخطر له على بال.

تطور البوذية

لم تظل البوذية طويلا على هذه البساطة التى رأيناها، إذ لم تلبث أن تحولت إلى ديانة معقدة، فيها كثير من الظلمة والخفاء و «الماوراء» الطبيعيات، فبوذا قد تحول إلى إلـه خفي ذى أسرار عجيبة، منها أن الإلـه تجسد في بوذا، لينقذ البشرية بأن يحمل عنها عبء خطاياها القديمة، ويحول بينها وبين ارتكاب أخرى جديدة، لا بواسطة نشر نور المعرفة بين الناس كما كانت الحال فى العهد الأول، بل بطريقة فيها من الأسرار العويصة مايجعل الفرق بين المهدين بعيداً والخلف شاسعاً. وليس هذا فحسب، بل إن بوذا قد أصبح بعد هذا التطور رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء إلى هذا العالم الأرضى من حين إلى آخر، متقمصاً جسد أحد بنى الانسان، لينقذ البشرية فى شخصه الذى يسمى فى كل مرة: «بوذا» ويجرى عليه مايجري على أفراد بنى الانسان جميعاً من أكل وشرب وزواج وإنسال وغير ذلك من خصائص الأناسى. وقد كان بوذا الذى نحن بصدد مذهبه الآن هو الرابع من هؤلاء الأشخاص الذين تقمص الإله أجسادهم.

الفلسفة البوذية

لما تطورت البوذية على النحو الذي رأيناه آنفاً وخاضت فيا وراء الطبيعة، كان من المحتم أن يكون لها فلسفة، لاسيا وأن عناصر هذه الفلسفة موجودة فى التعاليم الأساسية لهذه الديانة حيث قرر بوذا كما أسلفنا أن النجاة لاتتحقق إلا بعاملين متلازمين الزهادة والمعرفة، وأن من شأن الأولى أن توجد ديانة متصوفة، ومن شأن الثانية أن توجد فلسفة معقدة، وهذا هو الذى كان بالفعل، إذا أعلنت البوذية أن الانسان لايكون حكيما إلا إذا تمت له المعرفة، وهى لاتتم إلا إذا مر أمامه سلسلة مشاكل الكون المتماسكة الحلقات وأخذ فى حل حلقاتها واحدة بعد واحدة. وعندها أن سلسلة المشاكل الكونية يجب أن يبدأ فى حلها على النحو الآتى:

حيث إن الحياة مزيج من الألم والشيخوخة والموت، فأول الأسئلة التى ترد على الذهن هى: س: لم كان الموت؟. ج: لأننا ولدنا، ومن ولد يجب أن يموت. س: ولم ولدنا؟. ج: لأننا موجودون، والولادة والموت نوعان من الوجود، فالموت يقودنا إلى الحياة، والحياة تقودنا إلى الموت. س: ولم كان هذا الوجود؟ ج: لأننا خاضعون لارتباطات وثيقة بكل ما يغذى وجودنا، ولا سيا بالقوى الثلاث: المادية والنفسية والأخلاقية. س: ولم كان هذا الارتباط بالأشياء الخارجية أو الميل إليها أو الاتصال بها؟ ج: لأننا بالرغم من آلامنا الكثيرة نحس بظمأ إلى الحياة وشغف بها. س: ولم كان هذا الظمأ؟. ج: لأننا — وقد منحنا الاحساس — ننعطف بغريزتنا إلى البحث عن الاحساس اللذيذ، وهو يوجد فى استمرار الحياة. س: ولم كان هذا الاحساس؟: ج؟ لأنه يوجد تماس بين أعضائنا وبين الأشياء الخارجية. س: ولم كان هذا التماس؟ ج: لأن لنا حواس ستاً تتجاوب مع ستة أنواع من الأشياء أو مع ست حقائق موضوعية وبالأحرى مع ستة اختصاصات. س: ولم كان الاختصاص؟ ج: لأن كل مشخص يتألف من كائنين: المادة والمدرك. ومعنى هذا أنه اسم وصورة فى آن واحد. س: ومم جاءت الاسمية والصورية؟. ج: جاءت من أنه توجد معرفة، ووجود المعرفة يستلزم وجود كائن معنوى جدير بأن يعرف كما يستلزم وجود

عملية المعرفة . س : ومم جاءت المعرفة ؟ ج : جاءت من أن طبيعتنا مكونة من استعدادات شتى ، وأن سلوكنا الحاضر وليد نتائج معارف سابقة . س : ومم جاءت هذه الاستعدادات ؟ ج : جاءت من الجهل الطبيعي فينا ، لأننا لو كنا نملك المعرفة الحقة لما سقطنا فى السطحية التى تطبقها استعداداتنا تطبيقاً عملياً فى كل لحظة .

السكون عند البوذية

كل شيء حركة دائمة ، وليس هناك فى الحقيقة كائنات موجودة ، وإنما كل ما فى الكون لا يزيد على أنه حالات لهذه الحركة الأبدية يمتاز بعضها عن بعض بفروق ناشئة من سنن طبيعية لا يؤلف بينها عنصر جوهرى شامل ، وإنما هى موجودة من نفسها وبفعلها تتكون حوادث الوجود . فاذا اتخذنا الانسان مثلا كنموذج لبعض الظواهر الناشئة من السنن الكونية وجدناه مؤلفاً من خمسة عناصر : المادة والاحساس والادراك والنمو والوجدان .

وترى الفلسفة البوذية أنه لاثبات لأى واحد من العناصر على حالة واحدة ، وتتخذ من هذا برهانها على أنه لا يوجد فى الكون جوهر يؤلف بين الحوادث الكونية المشاهدة ، إذ لو كان هذا الجوهر موجوداً لما كان كل ذلك التعقد الذى يرافق هذه الظواهر دائماً ، ولشاهدنا فوق ذلك أثره الخاص ، مع أن الواقع أنه لا يشاهد لغير الظواهر الطبيعية أى أثر ، فمثلا الشهوة والجهل المجتمعان أبداً ينتجان أحداثاً ، والأحداث تنتج انفعالات ينشأ عنها إدراك الكائن لأنيّته . وهذه الانفعالات وذلك الإدراك للأنية ينتجان الوجود الشخصي ، وهذا الوجود الشخصى ينتج الحواس ، والحواس تنتج التماس مع الأشياء ، والتماس ينتج الاحساس ، والاحساس ينتج الرغبات ، والرغبات تنتج تشرب المشتهيات . وهذا التشرب ينتج الصيرورة ، والصيرورة تنتج التوالد ، والتوالد ينتج الألم والشيخوخة والموت ، والموت ينتج الحياة بوساطة التناسخ ، وهكذا تتكون دائرة الحركة المتداخل أولها فى آخرها تداخلا محكما .

النفس عند البوذية

تنكر البوذية النفس كما تنكر كل ما وراء الطبيعة ، ولكن آخر حلقة من هذه السلسلة المنطقية التى أسلفناها وهى حلقة التناسخ لا تلبث أن تخلق مشكلة عويصة وهي : إذا كان عنصر حياة مذهبكم هو التناسخ ، فما هو ذلك الكائن الذى يتناسخ ؟ فإن قلتم : إنه الجسم فلا يمكن أن يتناسخ جسم فى جسم ، لأنه يلزم عليه أن يتضخم هذا الكائن إلى مالا نهاية ، أو أن يذهب منه شيء ويحل محله شيء آخر ، فيترتب على ذلك تشويش فى النظام لا حد له ، إذ يعاقب البرىء على جريمة الآثم ، ويثاب المجرم على براءة البريء ، وهذا لا يقبله عقل ؛ وإن قلتم : إن ما يتناسخ هو شيء غير الجسد ، قلنا لكم : ما المانع من أن يكون هو النفس ؟ غير أن البوذية تنفلت من هذا الجواب كما هو شأنها كلما أحرجت بأسئلة ما وراء الطبيعة وتقول : إن هذا السؤال غير مفيد ، لأن جوابه غير محدود ما دامت عناصر الشخص بعد موته ليست عينه تماماً وليست غيره تماماً ، وإنما هى مزيج من العينية والغيرية معاً

مصير البوذية

حينما نشأت البوذية كانت البراهمية قد تخلقت بعض الشيء، فاستطاعت تلك الديانة الناشئة أن تهزمها وتحصرها فى أمكنة معينة من بلاد الهند ، ولكن البراهمية لم تلبث أن استردت قوتها وحملت على البوذية حملة عنيفة أجلتها بها عن أكثر البلاد الهندية ، حتى إذا فتح الاسلام الهند أجهز على البقية الباقية منها ، ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية فى القرون الأولى للميلاد المسيحى لم تكن قد انعدمت من الوجود ، وإنما كانت قد تفرقت شمالاً وجنوباً إلى الصين واليابان وجاوة وسومطرة ، وظلت هناك حيث التقت بالاسلام فصدمها خصوصاً فى جاوة وسومطرة صدمة قاسية لم تقو بعدها على المناهضة والغلاب فتخلت له عن الميدان معترفة بأن البقاء للأصلح ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

ولكن ليس معنى هذا أن البوذية قد امحت من سجل الكون ، كلا فهي لا تزال تحتل قلوب الملايين من بنى البشر وإن كانت قد تبدلت تماماً وخضعت لأهواء الشعوب التى اعتنقتها وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها انهزاماً جعلها أثراً بعد عين . فبعض الشعوب مثلا أدخل فيها عبادة النساء ، والبعض الآخر أدخل عبادة الفيلة محتجاً بأن بوذا قد تقمص أجسادها مرات متعددة ، والبعض الثالث جعل من شعائرها أن يباح للكهنة والقديسين كل موبقة مهما بلغت فداحة ما فيها من عهر ومجون ما دام هذا الكاهن يدعى أنه لا يحس أثناء هذا الفجور بسرور إلى غير ذلك مما لم يخطر لبوذا ولا لتلاميذه ولا لأنصاره الأولين ببال

« يتبع » **محمد غلاب**

أدب المنفلوطى

بقلم السيد جورج سلستى

كتبت على أثر الحملة الطائشة التى قام بها بعض الأدباء على المنفلوطى وأدبه بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة

أحق ما يقولون من أن صاحب « النظرات » (ليس بالكاتب ولا الأديب) ، وأنه صنم من أصنام الأدب (يجب علينا تحطيمه وطرحه) ، وأنه خلو حتى (من ناحيةٍ واحدة خليقة بالتحليل ووجهٍ واحدٍ جدير بالدرس) ؟ !

أتكون نفثاته الشائقة نفاية (لا قيمة لها ولا وزن) ، وكتاباته الممتعة (مزيفة جوفاء) ، وأدبه الرائع (سقيماً هزيلاً) ؟!

أيبلغ العقوق فى هذا الجيل حدَّه الأقصى فيتهجم الأبناء على آبائهم والتلاميذ على أساتذتهم ولا يعترفون لهم حتى بالتثقيف ولا يقرون لهم بفضل ولا شبه فضل ؟ !

أكلما طلع كاتب جديد كان القدح أول كلماته ، والنقد الجارح أول نفثاته ، وكان الهدم نصيب نابغة من نوابغ الأدب العالى وقطب من أقطاب الفن الرفيع ؟ !

أحتم على الأديب الناشىء أن يتخذ النقد المرّ وسيلةً لبلوغ ما يصبو إليه من مكانة ، والتهكم اللاذع سبيلا إلى مايطمح اليه من مقام ، كأن لا نهج إلا هذا النهج ، وكأن الانتاج ليس من مزايا التفوق والنبوغ ؟ !

إننا نكبر الجرأة — والجرأة من مزايا الأديب — ولكن عندما تكون محدودة ، مكبوتة النزوات ، مكبوحة الأهواء ؛ لأن الجرأة المطلقة تهوّر وجنون .

وإننا نجلّ النقد — والنقد عماد الأدب الصحيح — ولكن عندما يكون نزيها لاتحامل فيه ولا طعن .

نود أن يكون الناقد فذّاً فى أدبه فذّاً فى رجولته لأننا نربأ به أن يكون طفيلياً يعيش على فتات سواه ، لا ، بل نربأ بكل من يمت إلى الأدب بصلة أو سبب أن يبنى مجده على تقويض زعامة غيره وهدم بنيان سواه .

ليس المنفلوطى بالأديب الكامل ، فالأديب الكامل لم يخلقه الله بعد ؛ ولا هو سيد الكتاب ولا إمام المنشئين ولا أمير الشعراء ولكنه من سادة الكتاب ومن أئمة المنشئين ومن الشعراء المجيدين ، فعلام الانكار ؟ !

وليس المنفلوطى من الروائيين الأفذاذ ولا القصاصين النوابغ ولكنه من خيرة من نقلوا الرواية الأعجمية إلى لغة الضاد وممن كتبوا فى القصة فبلغوا فيها شأواً ؛ فعلام التضليل ؟ !

إن فى أدب المنفلوطى مآخذ ، ما فى ذلك ريب ، ولكن ما ضعف أقله لا ينبذ جله . وعلى الناقد الحصيف ألا يجسم الأخطاء ويتعامى عن مواضع السموّ والجمال .

يقولون إن المنفلوطى لم يكن يهمه من الانشاء غير الأسلوب وفى هذا القول غلوٌّ كثير .

فهو على افتتانه بالمظهر كان يولى «الجوهر» اهتمامه وعنايته ؛ إلا أن روعة أسلوبه طغت على سواها فظهر أدبه أقرب إلى السطحية منه إلى العمق .

والتقعر لم يكن من شأنه فقد كان يلقى بآرائه فى سلاسة ووضوح فى ألفاظ جزلة ناعمة ، فأتت ديباجته وضاءة مشرقة تغمرها العذوبة ويفيض عليها السحر . أيكون ساحر البيان سقيم الأدب هزيله ، وتكون السلاسة جُرْماً والعذوبة إثماً ؟ !

ويقولون إن الجيد فى لغة جيدٌ فى كل لغة ، وإن المنفلوطى إذا نُقِلَ إلى لغة أعجمية تعرّى من بهرجه وظهر ما فى أدبه من ضعف .

وهذا قول فيه نظر . فليس لقطعة من الأدب الانكليزى جلالها ذاته لدى نقلها إلى الفرنسية مثلا ، ذلك لأن لكل لغة سحرها الخاص فى الأداء والتعبير لا سيما فى الشعر والأدب .

وإنك عبثاً تستطيع بالغاً ما بلغت من قدرة أن تنقل شكسبير بسحره وفتنته إلى لغة أخرى ؛ وما ذلك إلا لأنه كان — وهو المتضلع من لغته البصير بدقائقها وأسرارها — على عنايته

بالفكرة شديد العناية بالأسلوب . ذلك الأسلوب الذى يفقد جل روعته بالنقل .

لندع شكسبير ولنتخذ أحد الكتاب المعاصرين مثالا . وليكن بول فاليرى هذا المثال .

فهذه « مقبرته البحرية » تكاد تكون أحجية ، وهي بالفرنسية معجزة فى السبك ، وما أحسب أن أحداً يأنس فى نفسه القدرة على نقلها إلى لغة أخرى ويظل محتفظاً بقوتها وروعتها الأصيلتين ، وليجرب نفسه من يشك فى القول أو من يرتاب فى صحته .

فتلاؤم الألفاظ فى كل لغة له جرسه الخاص ووقعه الخاص ، ولن يكون له مثل وقعه ومثل جرسه فى النقل والترجمة .

ويقولون إن المنفلوطي لم يصوّر إلا ناحية واحدة من نواحى الحياة هى البؤس ، وإنه لم يوفق حتى في هذه الناحية .

وهذا قول مردود ، فقد اشتهر المنفلوطى بمقالاته أكثر منه برواياته ، وهذه « نظراته » فى أجزائها الثلاثة طافحة بكل طريف؛ وقد عالج فيها جميعاً من فنون الأدب وشؤون الحياة الشيء الكثير

وهب أنه لم يكتب فى الاجتماعيات ولا فى الشعر ولا فى النقد الأدبى ، وأنه وقف قلمه السيال على المأساة دون الملهاة ، وعلى تصوير البؤس دون السعادة ، فهل يلام الحزين إن لم يفتر ثغره بالبسمات ؟ وهل تلحى الكئيب إذا لم تعرف مقلتاه إلا الدموع وإذا لم تفض نفسه إلا بما تشعر به ، ويجيش به صدره المجهود ؟ !

ثم من ذا الذي كتب فى البؤس فبلغ مدي المنفلوطى فيه ؟. ومن هو الكاتب العربى الذى حرك بنفثات قلمه مكامن الأشواق وهز مختلف الأحاسيس وتلاعب بالعواطف وأجري الشؤون من العيون كما حركها وأثارها وأجراها مصطفى لطفي المنفلوطى ؟ !

ويقولون إن التكلف احتل كتاباته كلها وإن قلمه كان يجرى بما لم تكن تشعر به نفسه . وفى هذا القول ما فيه من هراء

فلقد قال فيه عارفوه والذين لازموه فى حياته إنه لم يكتب إلا عن فيض شعوره وحسه ، وإن كتاباته صور حقيقية لنفسه ، وإن أدبه وكرم خلقه وما تحلى به شخصه من مزايا وصفات إنما هى رسائله وكتبه لا تنقص ولا تزيد ؛ أما أسلوبه فخال من التكلف وتكاد كلماته الطيعة تسيل رقة وعذوبة

والمنفلوطي إلي هذا كله شاعر مجيد وله قصائد رائعة لاتعيبها إلا قلتها . وهو فى شعره شأنه فى نثره متخير اللفظ متين السبك ، لطيف المعانى بارع الوصف ، وله فى الوجديات غرر وفى الحكم آيات

. . . . وبعد فحسب المنفلوطى فضلا على الأدب العربي أنه انتقل به فى مستهل النهضة من الجفاف إلى الايراق والايناع ، وإنه حبب جمهور المتأدبين في الانشاء الرفيع وأساغ له الاستمتاع بالسلاسة وتذوق العذوبة فيه . وحسبه فخراً أنه نسيج وحده فى عصره لم يجاره فى فحر بيانه منشىء فى جيله

ومن كان له فى الأدب خدمات مصطفى وفضل مصطفى ، فلن يضير مجده تهجم المتهجمين ولن ينال من مكانته تشدق المتشدقين

على أنه يؤلمنا والله ألا توزن الأقوال وألا تقدر الرجال

« بيروت » جورج سلستى



رسالة الشعر



مختارات من أدب الرافعى

« انقطع الرافعى عن التعلم فى المدارس بعد حصوله على الشهادة الابتدائية لعلة أصابته فى أذنيه، فكان لذلك أثر شديد فى نفسه، وكان بذلك يرى نفسه وهو فى العشرين كأنما ودع الشباب؛ فهو كثير الالتفات إلى الماضي والحنين إليه؛ وما كان له ماض بعد إلا المدرسة التى هجرها برغمه من جراء العلة التى نالته. فاستمع إليه فى القطعتين التاليتين يتحدث عن المدرسة وعهد الدراسة كما يتحدث الشيخ الهم عن ماضيه البعيد. والقطعتان من أول ماقال الرافعي من الشعر وهو ابن عشرين سنة ». أما القطعة الثالثة فقد ألقاها فى الحفلة السنوية لجمية الاتحاد والاحسان السورية المصرية بطنطا فى ٢٢ أبريل سنة ١٩٢١

محمد سعيد العريان

(١) زمن الدراسة

زمن كالربيع حلّ وزالا ... ليت أيامه خُلقن طوالا !
يحسب الطفلُ أنه زمن الهمّ ... وما الهمُّ يعرف الأطفالا
يابنى الدرسِ، مَن تمنّى الليالى ... كلها ليكمُ تمنّى المحالا
ليلةٌ بعد ليلةٍ بعد أخرى ... وليالى الهنا تمرُّ عِجالا
قد خَبَرْنا الأنامَ فى كل حالٍ ... فإذا الطفلُ أحسنُ الناسِ حالا
وهو إن جدّ لم يزل فى صعودٍ ... وكذا البدرُ كان قبلُ هلالا
غير أن الكسولَ فى كل يومٍ ... يجد اليومَ كلَّه أهوالاً
ويرى الكتْبَ والدفاتر والأقـ ... لامَ وأوراق درسِه أحمالا
وإذا ماشى إلى قاعة الدرْ ... سِ ذراعاً يظنّه أميالا !
من يقم فى الأمور بالجِدّ يهنأْ ... والشقا للذين قاموا كسالى
وزمانُ الدروس أضيقُ من أن ... يجدَ الخاملون فيه مجالا
أيها الطفلُ لاتضيّع زماناً ... لستَ تلقَي كمثله أمثالا
ربما نلتَ ما يفوتُ، وهيها ... تَ إذا فاتكَ الصّبى أن تنالا !

(٢) بعد المدرسة

ما لأيام ذا الصّبى تتفانَى ؟ ... وقديماً عهدتُها تتوانَى
ذهبتْ بالصّبى، سلام عليها ... من فؤادٍ بحبّها ملآنا
كل ذى حالة سيُمْنَى بأخرى ... ويلاقي بعد الزمان زمانا
والفتى مَن إذا تغيَّر حالٌ ... لم يقف فى وجوهه حيرانا
هذه ساعة الحصاد، فمن كا ... نَ تمنّى أراحه ما عانَى
والذى يزرع التهاونَ فى الأشْـ ... ياء لايجتنيه إلا هوانا
ليس يُجدى الإنسانَ أن يأمل النا ... سُ فلاناً من قومه وفلانا
فاسْعَ فى الأرض، إن عقبان هذا الـ ... جوّ لايرتضين فيه مكانا
واحذر الناسَ، إنما يأمن النا ... سَ صَبِيٌّ يظنّهم صبيانا
واركب الجِدّ فى الأمور ولا تجـ ... بُنْ إذا فات بعضُها أحيانا
إن هذا الوجود كالحرب: لا يُكْـ ... رَمُ فى الحرب من يكون جبانا

« سنة ١٩٠١ »

مصطفى صادق الرافعي

(٣) مصر والشام

يا نسمة النيل مُرِّى بالسلام إلى   نسيم وادى الهوى فى أرض لبنان
إلى النسيم الذى رفّت نضارتُه   كدمعة الفجر رفّتْ فوق ريحانِ
إلى النسيم الذى يندَى على كبدي   ندى السرورِ على آفاق أحزانِ
إلى النسيم الذى من طول أُلْفتهِ   للزهر أحْيا بروح الزهر أغصانى
بالله يا نسمات النيل طِرْنَ إلى   ذاكَ النسيم بأشواقي وتحنانى
قلبى يرفُّ رفيفَ الطير بينكما   كأنَّما أنتما فيهِ جناحانِ

* * *

لِمصرَ فى حقِّها الأدنى علىَّ هوًى   وللشآم هوًى فى حقِّها الدانى
لستُ الكريمَ بداري إنْ رعيتُ لها   عهداً ولم أرْعَ فيهِ عهدَ جيرانى

* * *

يا مصرُ أرضُكِ مهدُ العقل كان بها   والشام منبت أرواحٍ وأديانِ
نُبوّة العقلِ فى مصرٍ، وجارتُها   نُبُوّة الروحِ فيها مُنذُ أزمانِ
كلتاهما تركتْ فى الدهرِ معجزةً   إيمانُ عقلى فيها عقل إيمانى
معنًى من الحسن أعيانى تفهُّمُهُ   لكنهُ هو معنى الخالدِ الفانى

* * *

الشام من مصرَ، لكنْ قد تجاورتا   لِتُصبحا للمعالى شِبْهَ ميزانِ
ألم ترَ الدهرَ وزّاناً بمجدهما   مُلكاً بملكٍ وتيجاناً بتيجانِ
الشام من مصرَ لكن قد تباينتا   لأنَّ حسنَهما فى الأرض حُسْنَانِ
لونانِ فى واحدٍ كالغصنِ تنظرهُ   لوناً وبالوردِ غصنُ الوردِ لونانِ
والشرق وَجهٌ من الدنيا تُطلُّ بهِ   ومصر والشامُ فى ذا الوجهِ عينانِ
يا مصرَ يا سوريا ألمجدُ (دائرةٌ)   وأنتما فى محيط المجد (قُطران)
كلا كما مُشْبِهٌ فى الحسن صاحبَهُ   أأنتما واحدٌ أمْ أنتما اثنانِ
أري الممالكَ إخواناً مُعلّقةً   لكنّما مصرُ والشامُ الشقيقانِ
لو تُسألُ الأرضُ: أينَ أبناك؟ لا لتفتتْ   إليهما ثم قالتْ: هاهما ذانِ

رحلة ماتنقضي

للأستاذ فخرى أبو السعود

ما طول لبثى فى ديار قرار   والنفس تائقة إلى الأخطار؟
إنى سئمت لطول لبثيَ موطنى   ورغبت عن خدنى وعفتُ جوارى
ومللت نفسى إذ غدت وكأنها   دثر من الأطلال والآثار
قد آدها طولُ القعود ولم تزل   وثابة العزمات والأوطار
لأجددنَّ برحلة عزماتِها   وأُصدِّعَنْ عنها قيودَ إسار
أأُقيم فى أرض وفكريَ ماوَنى   فى الكون عن دأب وعن تسيار؟
تالله أهدأُ أو تُسابِقَ خطوتى   خطواتِهِ فى شاسع الأقطار
فى رحلة فى الأرض تعقب رحلة   لم أدر غايتها وأين قرارى
أَحثثُ خطوى فى مسارحَ لم تُجَبْ   بالكهرباء ولم تُجَزْ ببخار
متمليًّا أنَّى ترامتْ بى النوى   من فتنة الأرياف والأمصار
ألْقِي شروقَ الشمس يوماً من ذرى   طود ويوماً من عباب بحار
وتظل دائبةً وأمعنُ دائباً   حتى أودع قرصها المتوارى
وأسيرُ من رمل لِوادٍ معشب   غشّتْ حصاه سواقطُ الأزهار
نفْسى هنا لك صاحبي أكرِمْ به   من صاحب من صفوة الأخيار
أنْسَى على سَنَنِ الطريق بلابلى   ويخف ما بالنفس من أوقار
وأرى الحياة مع المسير جميلةً   والمكثُ حلفُ الهم والأكدار
ويقولُ مَن هذا الغريبُ مُعاشرٌ   أنا فيهمُ سرٌّ من الأسرار
أغشَى ديارهمُ وأطوى أفقْهم   وأمر فيهم كالخيال السارى
وهُمُ حيالى دائبون بمسرح   للعيش ذى وِرْدٍ وذى إصدار
فكأنهم دونى شخوصُ رواية   عُرضتْ مَشاهِدها على النُّظَّار
ياليت عمرى رحلة ماتنقضى   موصولة الأسفار بالأسفار
لا أصطفى وطناً ولا آوى إلى   دار فهذا الكون طراً دارى
لا دارَ إلاَّ حيث أغْنى فى حمى   جبلٍ مُنيف أو مَعين جار
أروى فؤادى من مباهج عالم   هو مسرح الألباب والأبصار
وأبيع فى الأسفار عمراً واحداً   أشْرِي به ألفاً من الأعمار

فخرى أبو السعود



رفائيل

RAFFAELO SANTI

الفنان أبداً

للدكتور أحمد موسى

— ٢ —

أما فى الغرفة الثانية Stanya d Eliodoro (١٥١٢ — ١٥١٤) فقد صور مناظر دينية ومناظر قصصية ، تناول فى الأولى العلاقة بين الكنيسة والخالق ، وتحرير الكنيسة الفاتيكانية من أعدائها بواسطة البابا يوليوس الثانى . وفى الثانية مثل طرد هيليودورس من معبد أورشليم بفارس هبط من السماء . ولعل من أجمل تصاويره (الفرسكو) تلك التى مثلت صد اتيلاّس عن روما سنة ٤٥٢ بقوة ليو الأول ، وادماج ذلك في محاربة الفرنسيين وطردهم من إيطاليا بعد مذبحة نوفارا سنة ١٥١٣ . أما القطعة التى مثلت تحرير بترى من السجن بواسطة الملاك فهى أيضاً لا تقل روعة عن سابقاتها .

وتبين صور السقف أربعة مناظر للعهد القديم (بحالة سيئة الآن) ، الأول يهوا وموسى ، والثانى فداء اسحاق ، والثالث ظهور يهوا لنوح ، والرابع حلم يعقوب .

وفى الغرفة الثالثة Stanya dell Encendio (١٥١٤ـ١٥١٧) سجل عصر البابوين ليو الثالث والرابع .

أما القطعة التى مثلت مأساة احتراق بورجو بالحى الفاتيكانى ومحاولة البابا ليو التاسع إخمادها ، وسيره فى التصوير على الخط الاغريقى الرائع الذى مثل حرق ترويا فإنها من أعظم ما أنتجه رفائيل .

وفى الغرفة الرابعة Stanz a Constantine ترى من أبرز فيها المذبحة الهائلة بين قسطنطين الأكبر وماكنتيوس ، والتى لم يتم تلوينها إلا بعد وفاة رفائيل بواسطة تلميذه رومانو



١ ــ مادونا ديللا سيديا ــ فلورنسا

وله من الأعمال العظيمة غير ما ذكرنا زخرفة وتحلية بعض الأماكن والمسالك المقببة بالفاتيكان ، وقد قام بهذه المهمة الفنية تلبية لطلب البابا ليو العاشر ؛ فعمل بالدور الأرضى وبالدور الأعلى كثيراً من المناظر الدينية وبخاصة تلك التى تنتمى إلى العهد القديم ، صور منها على السقف اثنتين وخمسين قطعة مساحة كل واحدة ١٣ × ٤ أمتار كلها بالفرسكو ، كما رسم كثيراً من النقوش والزخارف العربية وغيرها ووصل فى ذلك إلى غاية الاتقان مع وضوح اتساع خياله وروعته . ولم يقم بالعمل جميعه بمفرده ، كما كان الحال عند ميكيلانجلو ، بل استعان بتلامذته في التنفيذ بعد وضعه التصميم بنفسه . ومن بين هؤلاء التلاميذ من هو جدير بالذكر حقاً أمثال رومانو ، وبين ، وبيرينو دِل باجا ، وكالدارا



٢ ــ مادونا كونستبيلا ــ بطرسبرج

البابوات القيام بهـا ، فانه قام بغـيرها للأفراد أمثال أوجستينو شيجى وهو أحد رجال المال الذى طلب إليه تحلية كنيستين فى روما . ففي الأولى المسماه « القديسة ماريا ديللا پاسا » صور رفائيل سـنة ١٥١٤ الكاهنات الأربع فى أروع ما يمكن إخراجه من جمـال الخلقة وحسن التـكوين والروعة الانسانية . أما الثانية المسماة « القديسة ديلل پوپولو » فانه علاوة على وضعه تصميم الصحن ، وضع الرسوم التخطيطية التى رسمت بعدئذ على باطن القبـة . وهـذه الرسوم تمثـل خلق السبعة الـكواكب التى أخرجها الفنانـ الويسيو ديللا پاسا بالفسيفساء سنة ١٥١٦ .

وفى هذه السنة نفسها صور على حائط الردهة الصغرى بڤيلا فارنيزينا صورة « انتصار جاليتيا » ووضع تصميم الرسوم التى أخرجها تلميذاه رامونو وپيني والتى مثلت مناظر عشق « آمور وپسيشه » لسقف الردهة الـكبرى .

وله كرتونات مصورة بالماء (١٥١٥ — ١٥١٦) ، جعلها لتغطية الأجزاء السفلى لحوائط الڤاتيكان فى أيام الأعياد الرسمية ، هى أشبه بتلك التى تراها فى القصور إلى منتصف القرن التاسع عشر وكلها تشمل مناظر دينية من أهمها عودة بولس ، وتحرير بولس من سجنه ، وبطرس يستلم مفاتيح السماء من يسوع ، وشفاء الأعرج ، وموت أنانياس ، ومعاقبة كلماس بالعمى ، وبولس وبرنابا فى ليسترا ، وبولس يعظ فى أثينا ؛ والسبع الأخيرة من هذه القطع الـكرتونية موجودة بمتحف ساوث كنسنجتين بلندن

وله قطع جمعها للنسيج وعرضت فى الڤاتيكان لأول مرة فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥١٩ بالـكابيلا سكستينا لمناسبة « يوم استفان » وهذه كلها جمعت منذ حوالى مائة وعشرين سـنة (١٨١٤) فى مكانـ خاص (Galleria degli Arazzi) بالڤاتيكان . ولهذه القطع أمثلة موجودة بمتحف برلين ودرست منذ سنة ١٧٢٣

وإذا كنا لم نذكر للآن سوي الأعمال التى كلفه

ومهما يكن من شيء فان خيال هذا الفنان العظيم وقدرته على الخلق الرائع الذى يذهب بالمتأمل إلى ملكوت السمو ويحرك لسانه بالتسبيح بقدرة الله ، كل هذا لم يتمثل على أشده إلا فى تصوير العذراء التي أفنى روحه وتفانى بكليته فى إخراج صورها على أقصى ما يمكن لعقل إنساني أن يتصوره من الجمال .

هذا بيان أساسه المنطق والمقياس الصادق ، ولا أثر للمبالغة فيه ولا إلحاح رغبة فى تجليته على صورة تستأثر بإعجاب القارىء ،



٣ ــ ضحية ليسترا ــ كنسنجتن لندن



٤ ـ بولس يعظ فى أثينا ـ لنسنجتن لندن

فقد يحوم مثل هذا الكلام حول فنان آخر ، أما رفائيل فيكاد نطاق القول يضيق عن تداول حقيقته ووصفه .

وفى هذا المجال العظيم صور رفائيل ، وأظهر نهاية مقدرته ونبوغه ، وقد لجأ بعض المصورين إلى تصوير المادونا ودسّ ما صوره بين مخلفاته ، ولكنا ـ خصوصاً فى الوقت الحاضر ـ بعد تقدم علم التصوير الفوتوغرافى ، لاثبات الصور الحقيقية من المقلدة لا سيما بعد إمكان الكشف عن طبقات اللون على سطح اللوحات واتجاه الفرشاة ، لا نقع فيما وقع فيه بعض مؤرخى القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد أجمع مؤرخو الفن على أنه لم يوجد ولن يوجد فنان بعد رفائيل يستطيع أن يخرج ماريا والطفل بهذه العظمة والقوة والجمال الذي أخرجهما به ، أما حنان الأم ومحبتها لطفلها وكمال الانسجام الانشائى فى وضعهما فهذه صفات تلتصق بما صوره رفائيل .

أما الطهارة التى تجلت والعفة التى تمثلت فى وجه العذراء ، فهذه عسيرة على غيره من رجال الفن مهما كبر اسمهم .

احمد موسى



٥ ـ قصة صيد السمك ـ كنسنجتن لوندن



تراثنا الفنى فى ظل الاشراف الأجنبى

من الحوادث المدهشة المؤلمة معا ما كشفته التحريات الأخيرة من ضياع عشرات آلاف من التحف الفنية النفيسة من المتحف المصرى ، مابين تماثيل وصور وحلى فرعونيـة وغيرها ، وقد اكتشفت هذه الفضيحة المؤسية على أثر حادث التمثال الفرعوني الذى اختفى من المتحف وظهر أخيراً فى متحف بافالو بأمريكا ، ثم رده المتحف الأمريكى بعد أن وقف على الحقيقة ، وكان تصرفه مثلا للأمانة العلمية المؤثرة ، وقد كنا نعتقد أن خسارة مصر الفنية تقف عند مجموعات التحف الفرعونيـة النفيسة التي تحتفظ بها متاحف العواصم الأوربية والامريكية والتى تسربت من مصر خلال الخمسين عاماً الأخيرة ومعظمها بطرق غير مشروعة ، على يد البعثات الأجنبية التي تستتر بصفاتها العلمية والأثرية ؛ ولكن ظهر مع شديد الأسف أن البقية الباقية التى استطعنا أن نحتفظ بها من عبث أولئك العابثين ، وأن نودعها فى متحفنا القومي ، لم تسلم أيضاً من الاختلاس والاعتداء ، بل ظهر أن هذا الاختلاس يصل اليوم إلى آلاف مؤلفة من التحف التى أدمجت وقيدت في سجلات المتحف ولا وجود لها اليوم ؛ ونحن لانعتقد أن هذا الاختلاس المؤلم قد وقع فى يوم أو فى شهر أو أشهر بل وقع بالتوالى خلال أعوام طويلة ولم تفطن إليه السلطات ذات الشأن . ذلك أن تراثنا الفنى كان مع الأسف خلال العصر الأخير تحت الإشراف الأجنبى ، ومنذ أكثر من خمسين عاماً يتولى بعض العلماء الأجانب ، وهم جميعاً فرنسيون إدارة المتحف المصرى ؛ وما حدث من تسرب تحفنا ونفائسنا الفنية وقع فى عهد هذه الادارة الأجنبية ؛ وكان صوت المصري وصوت السلطات المصرية خافتاً فى الماضى ، فلم يرتفع كما يرتفع اليوم بالاحتجاج على هذه الفضائح المزرية ؛ وكان إذا أتيح له الاحتجاج يقنع بالترضية اللفظية . أما اليوم فان مصر لا تستطيع صبراً على هـذا الاعتداء الشائن على تراثها الفنى ، ولا بد من أن تقوم السلطات المصرية بكل ما تستطيع لتعقب الآثار الضائعة ، ولا بد لها قبل كل شيء أن تعتبر بهذا الدرس ، وأن تعمل على رفع الاشراف الأجنبى نهائياً عن المتحف المصرى ، كما وفقت من قبل إلى رفعه عن دار الكتب المصرية بعد عهد طويل من الاشراف الأجنبى تسربت فى ظله معظم التحف الخطية من القطر المصرى إلى ألمانيا التى كان يستأثر علماؤها بإدارة دار الكتب المصرية

لسنا ننكر ما أفادته مصر فى العصر الأخير من معاونة العلماء الأجانب ، ولكن التعاون العلمى الصحيح يجب أن ينزه عن أن يتخذ أداة للاستيلاء على تراثنا الفنى والعلمى بوسائل ظهر فى أحيان كثيرة أنها لا تتفق مع مبادئ الأخلاق الرفيعة ، ولا تتفق بالأخص مع الثقة الكريمة التى كانت مصر تمنحها فيما مضى للعلماء الأجانب

مستقبل المهن العقلية

تساءل كاتب فى إحدى الصحف الفرنسية الكبرى عن مستقبل المهن العقلية وأبدى تخوفه من أن يصير التفكير والمهن العقلية إلى مصير سيء ؛ وإذ كان التفكير قوام الحضارات الرفيعة فانه يخشى أن تصاب الحضارة البشرية في ركن من أعظم أركانها إذا لم تفطن الأمم المختلفة إلى ما أصاب التفكير والمهن العقلية من ضروب الركود والغبن ؛ ويقول هذا الباحث إن الفنون والمهن العقلية قد تضاءلت آفاقها وميادينها فى العصر الأخير وانحط معيارها المادى إلى أدنى الحدود ، هذا فى حين أن الحرف اليدوية والمادية قد ازدهرت وارتفع معيارها المادى ؛ وقد كان الفرق منذ ثلاثين سنة شاسعاً بين المهن العقلية ؛ والحرف اليدوية من حيث التقدير المادى ؛ أما اليوم فقد تضاءل هذا الفرق بل ربما تفوقت الحرف اليدوية فى بعض الأحيان على المهن العقلية ؛ ولنضرب لذلك مثلا ، فى إدارة شركة من الشركات أو تحرير صحيفة من الصحف ترى

الموظفين الذين يتولون أعمالاً ومهناً عقلية كالتحرير والادارة ، يتقاضون أجوراً لاتكاد تزيد على الأجور التي يتناولها بعض رؤساء العمل مثلا ، وأحياناً يتفوق هؤلاء في أجورهم على المحررين ويتناول العامل الفني مثلا في مصنع من المصانع أجراً يفوق مايتناوله الطبيب أو المحامي العادي من مهنته ؛ هذا مع أن الحالة قبل الحرب الكبرى كانت تختلف عن هذه الحالة كل الاختلاف ويرجع ذلك إلى تنظيم الحركة الصناعية والعملية منذ الحرب الكبرى ، وتنظيم النقابات والاعتصابات لرفع الأجور والمنح ، وتحسين أحوال العمال بوجه عام . أما أصحاب المهن العقلية فلم يفكروا ولم تسمح لهم ظروفهم بخوض مثل هذا الكفاح . بيد أن من الخطر على الحضارة أن يترك أصحاب المهن العقلية دون عون ، وأن يدفعوا بفعل الظروف الاقتصادية إلى مصاير سيئة تحملهم على التفكير في تحقيق العيش من طرق أخرى . ومن مصالح الأمم والحضارة أن تدعم الحركة الفكرية والمهن العقلية ، وأن تيسر لأربابها سبيل العيش المريح ، هذا وإلا فانه يخشى أن يخمد النبوغ وينطفئ وتتحول الحضارة إلى ركام من الماديات المبتذلة .

مؤتمر فني للتربية :

يعقد بمدينة كوبنهاجن عاصمة الدانماركة بين أول أغسطس والعاشر منه مؤتمر للتربية على مبادئ مونتيسوري المشهورة برياسة الدكتورة ماريا منتيسوري صاحبة هذه الطريقة ؛ وهذا هو المؤتمر السادس من نوعه ، وسيشهده مندوبون عن دول كثيرة وعن طائفة عديدة من معاهد التربية العالمية ؛ وستلقي الدكتورة منتيسوري محاضرات في الموضوعات الآتية (١) لماذا يمكن أن تؤثر التربية في سلام العالم (٢) ماذا يجب أن تزود به التربية لكي تعاون على تحقيق السلام (٣) ماذا يجب أن تسلح التربية به لمقاومة أخطار العصر (٤) ضرورة التفاهم العالمي لاعداد الانسانية إعدادا خلقيا (٥) التربية كوسيلة لرفع مستوى الانسان والمجتمع . وسيلقي أعلام آخرون من رجال التربية مباحث أخرى ، وتبحث أساليب منتيسوري للتربية بحثاً علمياً وفنياً ، ويقام في نفس الوقت معرض دولي لمطبوعات هذه الطريقة وأشغال مدارسها .

وقد اشتهرت أساليب منتيسوري للتربية في العصر الأخير ، وهي تنسب إلى الدكتورة منتيسوري التي كانت أول امرأة حصلت على درجة الطب من جامعة رومة ؛ وتولت إدارة معهد الأطفال الشواذ في سنة ١٨٩٨ ، وحصلت بطريقتها الخاصة على نتائج طيبة في رفع المستوى العقلي لهؤلاء الأطفال . وفي سنة ١٩٠٧ طبقت الدكتورة منتيسوري طريقتها على الأطفال العاديين وأسفرت عن آثار حسنة وذاعت في عدة معاهد في رومه وميلانو وبعض عواصم القارة . وتقوم هذه الطريقة بالأخص على ما يأتي : (١) تدريب الحواس والمنطق (٢) السيطرة على اطراف الجسم وحركاته (٣) تعليم القراءة والكتابة والحساب

وتتبع الآن كثير من رياض الأطفال في اوربا وامريكا طريقة منتيسوري

تأييد تصويب

استدرك قارئ فاضل هو (ش) في عدد الرسالة الماضي على عبارة وردت في مقالي المنشور في الرسالة (عدد ٢١١) تحت عنوان « من ذكريات الحملة الفرنسية » عن الملكة هورتنس بوهارنيه ابنة الامبراطورة جوزفين من زوجها الأول الكونت دي بوهارنيه ، إذ ورد به أنها كانت زوجاً للجنرال مورات ؛ والواقع أن ذلك سهو يؤسف له ؛ وقد كانت الملكة هورتنس في الحقيقة زوجاً لأخي نابوليون ، لويس بونابارت ملك هولنده كما ذكر (ش) في ملاحظته ؛ أما زوج الجنرال مورات فقد كانت الأميرة ماري كارولين أخت نابوليون ؛ وكانت حياة الملكة هورتنس من بعد سقوط الامبراطور في سنة ١٨١٥ حتى وفاتها في سنة ١٨٣٧ مؤسية مؤثرة ؛ وتولى أصغر أولادها لويس نابوليون عرش فرنسا فيما بعد باسم نابوليون الثالث

هذا وإني لأشكر لحضرة القارئ غيرته واستدراكه

(م . ع . ع)

الملكة هورتنس :

في التصويب الذي نشر في عدد الرسالة الأخير وردت الجملة « فولدت من نابليون الخ » والصواب « فولدت منه » بالهاء والهاء تعود على لويس بونابرت أخي نابليون بونابرت ووالد لويس نابليون الذي صار يعرف باسم نابليون الثالث (ش)



قلب غانيـــة
وقصص أخرى

تأليف الأستاذ محمود تيمور

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

للقصة اليوم فى الأدب العالمى خطر كبير، ومكانة معتبرة، فهى فى الأمة مظهر رقيها الأدبى، وتقدمها الفكري، وهي وسيلة الكاتب يضمنها ما يريد من إبداء فكرة ناضجة، أو شرح ظاهرة اجتماعية، أو تحليل شخصية غريبة، أو توضيح عاطفة نبيلة، حتى قضايا التاريخ، ومسائل العلم، ومشاكل السياسة، كلها قد أصبحت تؤدي بالقصص، وتروى بالحكاية. ولعل من المعلوم أن القصة بمعناها الفنى الدقيق لون جديد فى الأدب العربى كان فى طليعة المضطلعين بأعبائه المرحوم محمد تيمور الكاتب المسرحى مؤلف «الهاوية» و «العصفور فى القفص» و«عبد الستار افندى» وغيرها من القصص التى نسج بردها بأسلوب نازل، وأخرجها فى لغة عامية مهلهلة، بحجة أنها أقرب إلى عقل الشعب، وأنفذ إلى قلبه، فكان فى صنيعه هذا إرضاء للفن بالموضوع والفكرة وخذلان فى الأداء واللغة. فلما استأثرت به المنية – عليه رضوان الله – قام من بعده سيد آخر هو الأستاذ محمود تيمور، فحاول أن يكون نبوغه جماع ما كان لأخيه من الروح الفنية، وما كان في نفس والده من النعرة العربية، فصار يكتب القصة بأسلوب مبين ابتعد فيه عن الجفوة والخشونة، وارتفع به عن السقط والابتذال، وكأنى به قد ألفى نفسه وحيداً فى الميدان، واستشعر عظم الأمانة الملقاة على عاتقه، فأخذ يسد الفراغ بكلتا يديه، وراح يعمل في نشاط وتوثب، مرهفاً العقل والحس، حتى أخرج للناس وللفن جملة طيبة من القصص الممتع، نشر جلها فى الصحف وطبع منها نحو ثمانى مجموعات آخرها هذه المجموعة التى بين أيدينا «قلب غانية وقصص أخري» وهى موضع النظر، ومدار الحديث . . .

ثمانى قصص أو قل ثمانى قطع فنية هي التى تشتمل عليها هذه المجموعة مقدمة بكلمة المؤلف عن حافظ القصصى فى يوم ذكراه. وقصص الكتاب تختلف طولا وقصراً، فأطولها «قلب غانية» التى وقعت فى صدر الكتاب، وأقصرها قصة «أم» التى جاءت فى ختامه، ثم هى أيضاً تختلف فى جوها وبيئتها، وتتباين بأبطالها وشخصياتها، ففي قصة «حنين» يدلف بك تيمور إلى صميم الريف العظيم، فيستطيع أن ينقلك إلى «شمسه المحرقة وظلاله الوارفة، وهوائه الساخن، ونسيمه اللطيف، وغدرانه الوديعة، وسواقيه الناعسة» حتى ليسمعك «خوار بهائمه، وأغانى فلاحيه» ويريك «البهائم متراصة أمام معالفها ورؤوسها محنية على العلف تأكل فى شره فلا تسمع منها غير جرش وقضم وأنفاس ترددها بين الحين والحين»[1]، وفى «قلب غانية» يقودك إلى «حى غير مشهور» إذ وراء جدرانه حب قائم، وغرام يضطرم، فيطلعك على طراز من الناس تجرى بهم الحياة وهم بطئان، وتتغير الدنيا في تقاليدها وألوانها وهم لا يريمون مكانهم، إذ الحياة «لا تستحق عندهم أكثر من حشو البطون، والنوم ملء العيون وما لهم من الفراغ بعد ذلك فهم يقضونه «فى اطمئنان وتبلد» بين النارجيلة والثرثرة حول سلوك الناس؛ وفى قصة «سراب» و «حورية البحر» و «السجينة» يأخذ تيمور بيدك إلى منابت الارستقراطية، فاذا أنت في أسر من أفرادها الباشا والبك ومن أهون متاعها السيارة والمسرة، ولها الأمر والنهى، وفيها الخدم والحشم، والطائر والمربية، «حياة كلها رخاء وبهجة تسير

(١) هذه الفقرات من كلام تيمور ص ١١٦ وما بعدها وكل ما هو مقحم بين الأقواس .

وفق الهوى » وكل شيء فيها ميسور « المال والمرأة والأخوان » أما في قصة « قبلة » فتيمور يهبط بك إلى طبقة نازلة فاذا أنت في « حارة قديمة ضيقة عابثة خالية من المصابيح لا تكاد الشمس تترب عنها حتى تستولى عليها وحشة كئيبة » وهناك ترى « الدخاخني والمكوجي وبائع الفول » وتتعرف على السايس والعربجى والزبال إلى آخر ما هناك من الأشخاص والمعالم.

فتيمور من غير شك قصص شعبي لا يختص منه بطبقة من الطبقات ، ولايقصر أدبه على طائفة دون طائفة ،ولكنه يضرب في كل ناحية ويجرى في كل حلبة ، وإن من المدهش حقا أن نرى ذلك الأديب النابه موفقاً في كل قصصه ، صادقا في كل ما يصف ، فكأنه نشأ في كل هذه الطبقات وخالطها ولمس أحاسيس أهلها واستشف مايجول في خواطرهم ومايدور بنفوسهم فهو من الجميع وللجميع ، يستوعب شؤونهم ويتحفز لها بقوة واحدة هي قوة الملكة المصورة ،والنظرة الشاملة ، فكأنه ـ وهو يصف ـ مصور لا كاتب ، وكأن مايصفه مبسوط أمامه فهو ينقله على وضعه الطبيعي ، ومن ثم كان أدب تيمور هوالصورة الصادقة للحياة المصرية في أدق نواحيها ، فهو للسائح في بلادنا دليل مرشد، وهو للمؤرخ القادم مصدر ناطق ، وهو للاجتماعي الباحث مادة نافعة

وهناك ظاهرة في أدب تيمور يعيبها عليه بعض النقاد ، وهي خروجه على حدود الحشمة والوقار والأخذ بما يسمونه الأدب المكشوف ، وإنك لتجد شيئاً من هذا في قصة السجينة ، وقلب غانية ، وسراب ؛ وتيمور يدافع عن نفسه بأن « الأدب ليس له عنده غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع ، وليس له إلا هدف واحد هو الفن[1] » ، وأنا لا أريد أن أفيض القول في الأدب المكشوف والأدب المستور فان القول في ذلك يطول ، ولكني أريد أن أقول : إن من الخطل أن نتخذ الدين والأخلاق ميزاناً من موازين النقد فنطمس شعر النواسي مثلا لما فيه من العهر والفحش ، وإنما الواجب أن تصور الحياة بالأدب ، وأن نقدر الفن للفن ، وأن نفرق بين الأديب والواعظ ، والظاهر أن القدماء كانوا أسمح منا نفوساً في ذلك ، فقد عاب بعض النقاد شعر ابن حجاج بما تضمنه من فحش المعاني ، فقال ابن سنان الخفاجي يرد عليه : « وليس الأمر عندي على ذلك لأن صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل ، ويطلب في كل واحد منها صحة الغرض وسلامة الألفاظ على حد واحد . . . »[2] فان كان في قصص تيمور بعض النواحي المكشوفة فإن في الناس من يقبلها كما أن في الناس من ينكرها ، وهي على كل حال ليست بعيب فني يحصى على الرجل ...

وأما بعد فهل استطاع تيمور أن ينجو من سنان هذا القلم ؟ لقد حاولت أن ألتمس ما عليه فلم أقع إلا على هفوات طفيفة كأن يقول : «وكان كساب أفندي يرتدى زعبوطا !! »وأنا ما رأيت أفندياً يرتدى زعبوطا إلا في قصة تيمور

ثم هناك هفوات في اللغة والنحو قد يكون من السهل أن يتداركها الأستاذ في طبعة ثانية ، وأنا لست ممن يتساهلون في الخطأ اللغوى والنحوى ، لأن الكاتب الذى لا يراعى أشراط الكتابة هو فنان ناقص ! ! وإني لأشهد أن تيموراً قد ارتقى أسلوبه عن ذي قبل ، وهو كل يوم في تقدم مطرد ، وإني لأرجو له تقدماً أوفى وأتم ؟

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) الرسالة ٢٠٢ (٢) كتاب سر الفصاحة